تنبيه الحريص

لما في مصيبة أحد من ابتلاء وتمحيص

رسالة تدبرية في آيات غزوة أحد

من سورة آل عمران

د. أحمد أبو اليزيد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تَنْبِيهُ الحَرِيصِ لِمَا فِي مُصِيبَةِ أُحُد من ابْتِلاءٍ وتَمْحِيصٍ

(رسالة تدبرية في آيات غزوة أُحُد من سورة آل عمران)

د. أحمد أبو اليزيد

جمادى الآخرة - ١٤٤٧ هجرية

المحتوى

مقدمة	4
منهجية الرسالة	6
ملخص أحداث الغزوة	8
المقطع الأول (مقدمة أحداث الغزوة)	15
المقطع الثاني (التذكرة بالتاريخ، نصر بدر وفضل الله على المؤمنين)	17
المقطع الثالث (جهاد النفس قبل الجهاد في الميدان)	20
المقطع الرابع (رفع الهمة والحكمة من الإبتلاء)	24
المقطع الخامس (مكانة الرسول ﷺ وما يجب أن يكون عليه أتباعه)	28
المقطع السادس (أحداث الغزوة بالتفصيل وموقف المنافقين)	34
المقطع السابع (مواساة الرسول ﷺ وتطييب خاطره وذكر فضائله)	41
المقطع الثامن (عودة لأحداث الغزوة وموقف المنافقين)	48
المقطع التاسع (مفهوم الشهادة وقيمة الشهداء)	52
المقطع العاشر (ما بعد غزوة أُحُد والحديث عن غزوة حمراء الأسد)	55
المقطع الحادي عشر (مصير الكفار)	58
المقطع الثاني عشر (الخاتمة والتذكرة بالحكمة من الإبتلاء)	61
تعليق عام	63

مقدمة

إنَّ الأمر بتدبر القرآن جاء صريحًا في القرآن الكريم، كما قال ربُّ العزة سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا، النساء – ٨٢﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا، محمد – ٢٤﴾. وفي هذه الرسالة، أحاول أن أتدبر آيات غزوة أُحُد في سورة آل عمران، مستحضرًا السيرة النبوية الصحيحة على صاحبها الصلاة والسلام.

إنَّ غزوة أُحُد – أو بالأحرى مصيبة أُحُد[1] – حدثٌ مفصلي في السيرة والتاريخ الإسلامي عمومًا. إنَّ مصيبة أُحُد وما صاحبها من ابتلاءات عظيمة لابد أن يعاد بثه في القلوب، فمآل مخالفة أمر الرسول ﷺ وغلبة الدنيا على نفوس بعض الصحابة كان وخيمًا على الأمة. وكذلك فإنَّ التمحيص وتنقية الصف المسلم كان أشد ما يكون مع ابتلاءات أُحُد، وما أحوجنا الآن أن نفهم وندرك سنن الله عزَّ وجل الكونية في تداول الأيام بين الناس وسننه في الابتلاءات وما يلازمها من حكم رفع الدرجات وتمحيص الصفوف. أقول ما أحوجنا ونحن في ابتلاءاتٍ متتالية، لا نكاد نفيق منها، والأدهى أننا لا نتعلم منها، فنرى الصفوف وقد تمايزت ولكن لا ندركها ولا نلقي لها بالًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

[1] ولفظ (مصيبة) لفظ رباني ذكره الله عزَّ وجل في هذه السورة ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا، آل عمران – ١٦٥﴾.

إنَّ هذه الرسالة التدبرية صرخةٌ من قلبٍ مكلوم، حريصٌ[2] على الأمة في توضيح ما حدث في مصيبة أُحُد من ابتلاءات وتمحيص، لتكون نبراسًا – ولو كان خافتًا – لتنير درب المؤمنين الصادقين في حلكة الليل البهيم.

تحتوي هذه الرسالة، بعد هذه المقدمة، على ستة عشر مبحثًا. في المبحثين التاليين، نطرح منهجية الرسالة ثمَّ ملخصًا سريعًا لأحداث غزوة أُحُد. وبعد ذلك، تدبر الآيات الكريمة عبر تقسيمها إلى اثني عشر مقطعًا، نتناول في كل مبحث مقطعًا بالتفصيل، ثمَّ مبحثًا مستقلًا كتعليق عام على الآيات.

نسأل الله عزَّ وجل لهذه الرسالة القبول عنده أولًا، ونسأل لها القبول في قلوب عباده المؤمنين، وما كان من صواب في هذه الرسالة فهو محض فضلٍ ومنَّةٍ من الله عزَّ وجل، وما كان من سهوٍ أو خطأٍ أو نسيان فمنِّي[3] ومن الشيطان، ونسأل الله عزَّ وجل الإخلاص في القول والعمل.

العبد الفقير إلى مولاه
أحمد أبو اليزيد
جمادى الآخرة – ١٤٤٧ هجرية

---

[2] تأسيًا بصفة الرسول ﷺ التي امتدحه به ربُّ العزة في قوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ، التوبة – ١٢٨)

[3] ولأنه جهد بشري فلن يخلو من أخطاء، وأرجو ممن وجد خطأً أن يتفضل بمراسلتي أو مراسلة الدار من باب التعاون على الخير ، ولكم جزيل الشكر والعرفان.

منهجية الرسالة

إنَّ الآيات محل التدبر - في هذه الرسالة - هي الآيات الكريمة التي تتحدث عن غزوة أحد في سورة آل عمران، بدءًا من قول الله تعالى (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) حتى قول الله تعالى (مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)، آل عمران ، الآيات ١٢١- ١٧٩.

إنَّ المتأمل يجد أنَّ الآيات محل التدبر يمكن بسهولة تقسيمها لعدة مقاطع[4]، وسوف نفصل في هذا الأمر لاحقًا. وفي الشكل التالي الخريطة الذهنية لهذه المقاطع، لسهولة التدبر.

وفي الفصول التالية – بعد استعراض ملخص أحداث غزوة أحد كما ذكرت في كتب السير، سوف نعرض كل مقطعٍ على حدة، مع بيان معاني بعض الكلمات في الهامش، واليسير من التفسير والتدبر وأوجه البلاغة، مما امتن الله عليَّ من الفهم والجهد. وفي الفصل الأخير، نأتي على تعليق عام نحاول فيه استخلاص بعض الدروس والعبر من الآيات محل التدبر.

[4] وهذا تقسيم اجتهادي، وربما يأتي آخرون بتقسم آخر.

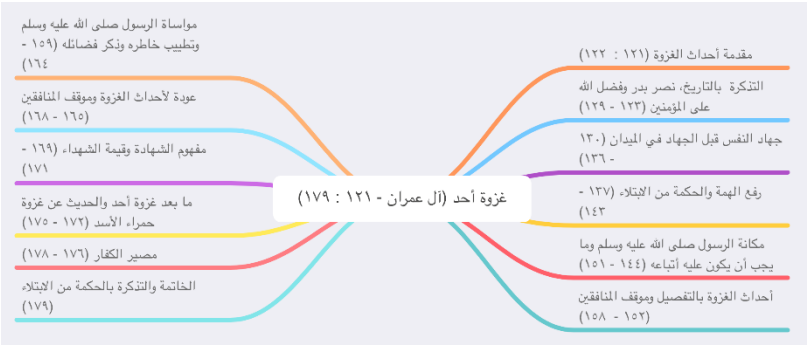
غزوة أحد (آل عمران - ١٢١ : ١٧٩)
مقدمة أحداث الغزوة (١٢١ : ١٢٢)
التذكرة بالتاريخ، نصر بدر وفضل الله على المؤمنين (١٢٣ - ١٢٩)
جهاد النفس قبل الجهاد في الميدان (١٣٠ - ١٣٦)
رفع الهمة والحكمة من الابتلاء (١٣٧ - ١٤٣)
مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم وما يجب أن يكون عليه أتباعه (١٤٤ - ١٥١)
أحداث الغزوة بالتفصيل وموقف المنافقين (١٥٢ - ١٥٨)
مواساة الرسول صلى الله عليه وسلم وتطييب خاطره وذكر فضائله (١٥٩ - ١٦٤)
عودة لأحداث الغزوة وموقف المنافقين (١٦٥ - ١٦٨)
مفهوم الشهادة وقيمة الشهداء (١٦٩ - ١٧١)
ما بعد غزوة أحد والحديث عن غزوة حمراء الأسد (١٧٢ - ١٧٥)
مصير الكفار (١٧٦ - ١٧٨)
الخاتمة والتذكرة بالحكمة من الابتلاء (١٧٩)

ملخص أحداث الغزوة

أرادت قريش الثأر من المسلمين بعد هزيمتهم في يوم بدر ، فاستعدوا لذلك استعدادًا كبيرًا، ورصدوا قافلة أبي سفيان التي كانت قد نجت يوم بدر[5] لتجهيز جيشٍ كبيرٍ حشدوا فيه من أهل مكة وما حولها من القبائل، وذلك في العام التالي لغزوة بدر أي في العام الثالث من الهجرة. وصل قوام الجيش إلى ثلاثة آلاف مقاتل معهم ثلاثة آلاف بعير ومائتي فرس وسبعمائة درع. كان على رأس الجيش أبو سفيان بن حرب ويعاونه صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد[6]، وكذلك معهم عدد من النساء، تتقدمهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ومعها زوجة صفوان بن أمية وزوجة عكرمة بن أبي جهل وصل الجيش المدينة واستقر عند جبل أُحُد شمال المدينة.

علم الرسول ﷺ باستعداد قريش للخروج[7]، فاجتمع مع صحابته وتشاور معهم في أمثل الطرق لمواجهة هذا الخطر الكامن. وهنا قصَّ الرسول ﷺ على صحابته رؤيا رآها في المنام، وفيها: (إني قد رأيت والله خيرًا، ثم قال: رأيت بقرًا تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلمًا ثم قال: ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة)[8]، والثلم أي الخدش أو الكسر. ثمَّ أَوَّل الرسول ﷺ البقر بالنفر وأنَّ نفرًا من أصحابه يقتلون، والثلم الذي في سيفه بأنَّ رجلًا من أهل بيته يقتل، والدرع الحصينة بأنها المدينة المنورة، أي أنه يقاتل في المدينة المنورة. ويتضح من هذه الرؤيا أنه كان من رأي الرسول ﷺ أن يقاتل في المدينة ولا يخرج منها، وهذا ما صرح به حيث قال: (يقاتل المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيت) ،

---

[5] يقال أنها كانت تقدر بخمسين ألف دينار ذهبي.

[6] رضي الله عنهم جميعًا، ولكن نتخلى عن الترضية عليهم في هذه الرسالة حيث كانوا ما زالوا على الكفر، حتى لا يختلط على القارئ الأمر.

[7] ويقال أن العباس بن عبد المطلب هو من أخبر الرسول ﷺ سرًّا.

[8] وللحديث طرق أخرى، منها: (رأيتُ كأني في دِرْعٍ حصينةٍ ، ورأيتُ بقَرًا تُنْحَرُ ، فأوَّلْتُ أنَّ الدِّرْعَ الحصينةَ المدينةُ ، وأنَّ البقرَ نَفَرٌ ، واللهِ خيرٌ) - صحيح الجامع.

ووافقه الرأي زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول. غير أنَّ الكثير من المسلمين وخصوصًا ممن لم يشهد بدرًا في العام السابق[9] كانوا يتمنون الخروج للقتال فينالون ما ناله أهل بدر من شرفٍ وعزة، وكذلك تاق الكثير أيضًا ممن شهد بدرًا[10] للقتال خارج المدينة، وأشاروا على الرسول ﷺ بالخروج من المدينة لملاقاة العدو. نزل الرسول ﷺ على رأي أصحابه في الخروج من المدينة وعزم الأمر ثم توكل على الله ولبس لأمته وهي لباس الحرب، فلبس درعين وأخذ سيفه. عندها شعر الصحابة أنهم قد خالفوا أمر نبيهم واستكرهوا الرسول ﷺ على الخروج، فأرادوا بعدما قضي الأمر أن يردوا الأمر إلى الرسول ﷺ مرة أخرى ليفعل ما يريد.فلما خرج رسول الله ﷺ وعليه عدة الحرب، قالوا له: يا رسول الله! ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل. لكن الرسول ﷺ اتخذ القرار وأعدَّ العدة واتفق الصحابة على القتال، فقال لهم: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه).

خرج رسول الله ﷺ إلى أُحُد في ألف رجلٍ من أصحابه، وفي الطريق بين المدينة وأُحُد، عاد عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاثمائة مقاتل – من المنافقين – وانتقد مخالفة الرسول ﷺ لرأيه ونزوله على رأي الصحابة.في ذلك الوقت كادت فرقتان من المؤمنين – وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو الحارث من الأوس – أن يتبعا عبد الله بن أبي بن سلول ولكن الله عصمهما من هذا الزلل. في هذه الأثناء، خرج عبد الله بن حرام رضي الله عنه محاولًا أن يُثْني الثلاثمائة مقاتل عن التخلي، وقال لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، فاستنكروا وراوغوا بمقالتهم وقالوا: لو نعلم قتالًا لاتبعناكم، وعادوا إلى المدينة وبقي سبعمائة مقاتل مع الرسول ﷺ واتجه بهم نحو أُحُد.

---

[9] حيث قال أحدهم: (يا رسول الله! كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه إلينا وقرب المسير، اخرج إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم).

[10] كان من أشد المتحمسين للخروج حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه، حتى أنه قال: (والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعامًا حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة).

وصل الرسول ﷺ أرض المعركة وبدأ يجهز الجيش وينزلهم منازلهم، وخصوصًا أَمَرَ فرقة كاملة، عددهم خمسون من الرماة أن يصعدوا جبل الرماة وأَمَّر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه وأمرهم بعدم التخلي عن مواقعهم أبدًا مهما تغيرت الظروف، فقال ﷺ لعبد الله بن جبير قائد المجموعة: (انضح عنا الخيل بالنبل، لا يأتون من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك)، ثم قال للرماة: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطئناهم فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم).

بدأت المعركة بضراوة تشبه يوم بدر[11]، حتى كاد المسلمون أن ينتصروا انتصارًا مبهرًا، فقد تراجع جيش المشركين حتى فرَّ منهم الكثير ووصل المسلمون إلى مؤخرة جيش الكفار حيث النساء وهنَّ يهربن كذلك من وطأة الحرب. ويجدر بالذكر محاولات خالد بن الوليد الحثيثة للالتفاف حول المسلمين غير أنَّ فرقة الرماة المتمركزة فوق جبل الرماة أمطروه بوابل من النبال.

في أثناء هروب المشركين تركوا خلفهم الكثير من الغنائم، فلمَّا رأى الرماة ذلك دبت الدنيا في قلوب بعضهم وأرادوا أن يجمعوا الغنائم، واتخذوا قرارًا بالنزول من على الجبل في مخالفة واضحة وصريحة لأمر الرسول ﷺ. لم يكن هذا حال كل فرقة الرماة، بل تنازعوا الأمر بينهم، فقال لهم قائدهم عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: الغنيمة الغنيمة! ونزل أربعون منهم ليجمعوا الغنائم ظنًّا منهم أنَّ المعركة قد انتهت. رأى خالد بن الوليد هذا النزاع والشقاق واستغل هذه الثغرة والتفَّ حول جبل الرماة ليبيد ما تبقى من الفرقة بالكامل وتقلب دفة المعركة لصالح الكفار.

لمَّا رأى المشركون موقع خالد بن الوليد وتمكنه من جبل الرماة، عادوا مرةً أخرى للقتال أكثر حميةً وجرأة، حتى أنَّ راية الكفر التي سقطت رفعتها امرأة واجتمع حولها الكثير وبدأوا

[11] يرجى العودة لكتب السير للوقوف على بداية يوم أُحُد.

الهجوم على المسلمين. كان الهجوم ضاريًا حتى كاد الرسول ﷺ أن يقتل في بطولات سطرتها كتب السيرة للأنصار والمهاجرين[12]، واستشهد الكثير من الصحابة[13].

في حلكة هذا الموقف، أشيع أنَّ الرسول ﷺ قتل، فقعد كثيرٌ من الصحابة يأسًا منهم، غير أنَّ الله عزَّ وجل ألهم بعضًا من الصحابة الرشد كأنس بن النضر رضي الله عنه، حيث قال لمن ألقى سلاحه وقعد في أرض المعركة: قوموا فموتوا على ما مات عليه ﷺ، إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت[14]. واستمرت إشاعة مقتل الرسول ﷺ زمنًا حتى اكتشف كعب بن مالك رضي الله عنه أنَّ الرسول ﷺ حي، فاجتمع له ثلاثون شخصًا فقط، تحرك بهم الرسول ﷺ نحو الجبل دون أن يلفت أنظار المشركين.في هذه الأثناء نادى الرسول ﷺ على بعض صحابته الذين فروا كانت بدأت الفرار من القتال وهم يصعدون الجبل، فناداهم الرسول ﷺ من خلفهم: إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله. فلم يستمعوا له بل ولم يلتفتوا له ولم يلبُّوا أمره، وهم على حالة من الغم المتراكب.

انتهى القتال، والمسلمون على ثلاثة أصناف: شهداء على أرض المعركة قد مَثَّل الكفار بأجسادهم، والقليل من المسلمين مع الرسول ﷺ، والبعض الآخر فرَّ من المعركة إلى المدينة. في هذه الأثناء، جاء أبو سفيان بن حرب حتى يتأكد من مقتل الرسول ﷺ، ومن بعده أبي بكر وعمر، فلمَّا تأكد من وجودهم أحياءً، أراد أن يشمت من المسلمين ويفت في

---

[12] يرجى العودة لكتب السير للوقوف على بطولات الأنصار والمهاجرين، على رأسهم فرقة الأنصار الذين استشهدوا واحدًا تلو الآخر دفاعًا عن الرسول ﷺ، وغيرهم كطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص ونسيبة بنت كعب، رضي الله عنهم جميعًا.

[13] يرجى العودة لكتب السير للوقوف على شهداء أُحُد، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعمرو بن الجموح وأنس بن النضر وعبد الله بن حرام وعبد الله بن جحش وحنظلة بن أبي عامر وسعد بن الربيع وغيرهم الكثير، رضي الله عنهم جميعًا.

[14] فلمَّا رأى سعد بن معاذ رضي الله عنه قال : يا سعد بن معاذ - وفي لفظ يا أبا عمرو- واها لريح الجنة ، ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد. ثم تقدم فقاتل حتى قتل، فوجدوا في جسده بضعًا وثمانين ضربة من بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم.

عضدهم[15]، ثمَّ أخذ أبو سفيان جيش قريش متجهًا إلى مكة بعدما توعدهم بالقتال العام القادم. وحتى يتأكد الرسول ﷺ من وجهة الكفار فقد أرسل عليَّ بن أبي طالب، فقال: (اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون؟ فإن كانوا قد جَنَبُوا الخيل، وامْتَطُوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة. والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم). قال عليٌّ: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووَجَّهُوا إلى مكة.

انقضت المعركة برمتها ليتفقد الرسول ﷺ أرض المعركة ويفجع المسلمون جميعًا فيما فعله الكفار من تمثيل للجثث في واقعة مأساوية، وكان على رأسهم حمزة بن عبد المطلب[16] وعبد الله بن حرام وأنس بن النضر رضي الله عنهم جميعًا. كان الرسول ﷺ حزينًا مما حدث للشهداء، فبكاهم ودعا لهم ودفنهم وصلى عليهم[17].

---

[15] أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادي أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه . وكان النبي ﷺ منعهم من الإجابة. فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوءك. فقال: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني. ثم قال: أعْلِ هُبَل. فقال النبي ﷺ: (ألا تجيبونه؟) فقالوا:فما نقول؟ قال: (قولوا: الله أعل وأجل). ثم قال: لنا العُزَّى ولا عزعزَّى لكم. فقال النبي ﷺ: (ألا تجيبونه؟) قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا:الله مولانا، ولا مولي لكم). ثم قال أبو سفيان: أنْعَمْتَ فَعَال ، يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال. فأجابه عمر، وقال: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار. ثم قال أبو سفيان: هلم إلى يا عمر، فقال رسول الله ﷺ: (ائته فانظر ما شأنه؟) فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللّهم لا. وإنه ليستمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندي من ابن قَمِئَة وَأَبَر.

[16] من الجدير بالذكر أنَّ خبر هند بنت عتبه قد لاكت كبده، فلم تستسغه لم يثبت في حديث صحيح، ونرجو العودة لكتب الأحاديث للوقوف على هذا الأمر.

[17] لمَّا رأى ﷺ ما حدث بحمزة رضي الله عنه اشتد حزنه وبكى بكاءً شديدًا، وانتحب حتى صار له شهيقًا عاليًا من البكاء. يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (ما رأينا رسول الله ﷺ باكيًا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب) بل وضعه ﷺ في القبلة وصلى عليه مع كل شهيد رضي الله عنهم أجمعين وأرضاهم. وللتنبيه فإن الحديث الذي فيه أنَّ

عاد المسلمون إلى المدينة ليبدأ المنافقون في تشكيك المسلمين في قرارهم وأنَّ خروجهم من المدينة والقتال كان سببًا لقتلهم، ولو لم يخرجوا من المدينة لما ماتوا وما قتلوا، وكان كل هذا يسبب أذىً نفسيًا للمؤمنين الذين أصابهم الغم على ما أصابهم من القتل والجراح ومخالفة أمر الرسول ﷺ والفرار من الحرب.

في اليوم التالي مباشرة، أمر الرسول ﷺ بالخروج إلى حمراء الأسد وهي مكان إلى جنوب المدينة في اتجاه مكة – تبعد عنها ثمانية أميال – في غزوة سميت في التاريخ الإسلامي بغزوة حمراء الأسد. وقد أمر الرسول ﷺ المنادي ألا يخرج إلى حمراء الأسد إلا من حضر القتال في أُحُد[18]، فخرجوا معه جميعًا على ما فيهم من جراح استجابة لأمر الله ورسوله. في هذه الأثناء، كان جيش الكفار قد عسْكَر عند الروحاء – تبعد عن المدينة أكثر من ثلاثين ميلًا – يتناقشون أنهم لابد أن يعودوا ويغزوا المدينة ليستأصلوا شأفة المسلمين، وخصوصًا على ما هم فيه من ضعف وجراح.

أراد الرسول ﷺ أن يخذِّل صف المشركين، فأرسل رسالة مع معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى أبي سفيان بن حرب، فقام بها خير قيام وخذلهم حتى صرفهم الله عن نيتهم بغزو المدينة[19]، وفي إطار هذه الحرب النفسية أراد أبو سفيان كذلك أن يخذِّل المؤمنين فأرسل

الرسول ﷺ قال: لَئِنْ ظَفَرْتُ بِقُرَيْشٍ لَأُمَثِّلَنَّ بِثلاثينَ رجلًا منهم، عند رؤيته للتمثيل في الجثث، حديثٌ ضعيف ضعفه غير واحد من أهل العلم.

[18] قال جابر بن عبد الله : يا رسول الله إنَّ منادِيًا نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس. وقد كنت حريصًا على الحضور ولكن أبي خلفني على أخوات لي وقال يا بني لا ينبغي لي ولك أن ندعهن ولا رجل عندهن وأخاف عليهن وهن نسيات ضعاف وأنا خارج مع رسول الله لعل الله يرزقني الشهادة. فتخلفت عليهن فاستأثره الله علي بالشهادة وكنت رجوتها، فأَذَنْ لي يا رسول الله أن أسير معك. فأَذِنَ له رسول الله ﷺ. قال جابر فلم يخرج معه أَحَدٌ لم يشهد القتال بالأمس غيري، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال فأبى ذلك عليهم.

[19] قال معبد بن أبي معبد الخزاعي لأبي سفيان: إنَّ محمدًا قد خرج لكم في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحركون عليكم تحرقًا، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. فخاف أبو

رسالة مع ركبٍ من عبد القيس أن أبلغوا محمدًا أنَّا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه. فوصلت الرسالة إلى رسول الله ﷺ فقال حسبنا الله ونعم الوكيل[20]. ظلَّ الرسول ﷺ في حمراء الأسد ثلاثة أيام، ثمَّ عاد إلى المدينة، وبذلك تكون انتهت أحداث غزوة أُحُد، ويرجى لمن أراد التفصيل العودة لكتب السير.

وبهذا نكون قد انتهينا من هذا الملخص العام لأحداث الغزوة، وسوف نعرج عليها في تدبر الآيات كما في الفصول اللاحقة.

سفيان وقال: ويحك ما تقول؟ قال معبد : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم. قال معبد : لا تفعل إني ناصح.

[20] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ، قالَهَا إبْرَاهِيمُ عليه السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وقالَهَا مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حِينَ قالوا: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، آل عمران – ١٧٣). صحيح البخاري.

المقطع الأول (مقدمة أحداث الغزوة)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (آل عمران، ١٢١-١٢٢)[21]

تدبر المعنى العام:

يبدأ الحديث عن غزوة أُحُد بمحاولات الرسول ﷺ الحثيثة التي بدأت في الصباح الباكر لتجهيز الجيش وإعداد الطائفة المؤمنة المقاتلة، وإنزال هؤلاء المؤمنين المجاهدين منازلهم، فيضع هذا في الميمنة وهذا في الميسرة ويتفقد العدة والعتاد قبل الخروج من المدينة. ولكن في الطريق من المدينة إلى أُحُد حدث انشقاق للمنافقين بقيادة زعيمهم عبد الله بن أبَيّ بن سلول الذي كان من رأيه البقاء في المدينة على عكس رأي الشورى الذي نزل عليه الرسول ﷺ. انشقَّ المنافقون بثلث الجيش، ولم تكن هذه المشكلة، فسبعمائة مؤمن خيرٌ من ألفٍ بينهم ثلاثمائة منافق (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، البقرة - ٢٤٩) ، بل إنَّ وجود المنافقين في الصف المسلم قد يكون مُهلِكًا – خصوصًا في وقت الشدائد - لما يبثونه في الصف المؤمن من رسائل التثبيط التي قد يستمع لها البعض (لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، التوبة – ٤٧). وهذا ما حدث بالفعل بعد واقعة

---

21 غَدَوْتَ: ذهبت وقت الغداة، أي ما بين الفجر إلى طلوع الشمس.
تُبَوِّئُ: تتخذ معسكرًا لهم، وتنزلهم منازل الحرب، أو توطِّنُهم و تُنزلهم أماكن القتال.
هَمَّت: كادت واقتربت.
طَّائِفَتَانِ: مثنى طائفة ويقصد بها هنا القبيلة أو البطن.
تَفْشَلاَ: تجبُنا وتتولَّيا عن القتال
وَلِيُّهُمَا: الولي أي النصير والمعين

انسحاب المنافقين، فقد كادت طائفتان من المؤمنين[22] أن تقعا في هذا الفخ فتتولَّيا كما تولَّى المنافقون، غير أنَّ الله – وليُّ المؤمنين - عصمهما من الزلل ومن هذه الجناية الكبيرة (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، البقرة - ٢٥٧)

التدبر البلاغي:

وفي كلمة (غَدَوْتَ) دلالة على همة الرسول ﷺ ونشاطه المبكر، وكلمة (تُبَوِّئُ) توحي بأنه ﷺ لم يترك شاردة أو واردة إلا واعتنى بها، فها هو ذا وكأنه يوطنهم في أماكن القتال بيديه الشريفتين. ولأن الآيات نزلت مباشرة بعد الغزوة تتحدث عن ماضٍ قريب، فأعلمهم سبحانه أنه (سَمِيعٌ) لما دار بينهم من محادثات، (عَلِيمٌ) بضمائرهم وبما حدث من طاعة وعصيان. أمَّا مقام الولاية في كلمة (وَلِيُّهُمَا) فأكبر دليل على منته سبحانه على هذه الفئة المؤمنة التي كادت أن تهلك لولا فضله ورحمته.

[22] الطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج وبنو الحارث من الأوس.

المقطع الثاني (التذكرة بالتاريخ، نصر بدر وفضل الله على المؤمنين)

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (آل عمران، ١٢١- ١٢٩)[23]

تدبر المعنى العام:

تنتقل الآيات إلى الماضي، إلى عامٍ سبق، مطوِّفَةً في فضل الله عزَّ وجل على هذه الفئة المستضعفة في يوم بدر يوم الفرقان، حيث كانت هذه الفئة بلا عدةٍ تُذْكَر ولا عتادٍ يقارن في مواجهة عدوٍّ أتى بكبره وبطره وبسلاح المحارب يريد أن يستأصل شأفتهم ويبيدهم عن بكرة أبيهم. في هذه الأوقات العصيبة، تتنزل رحمات الله تترى على الطائفة المؤمنة

---

[23] أَذِلَّةٌ: جمع ذليل، عكس كلمة عزيز، وأذلة أي ضعفاء لا طاقة لكم.
مُنزَلِينَ: أي نازلين من السماء
مِن فَوْرِهِمْ: من ساعتهم هذه بلا إبطاء، وقيل من فورة غضبهم.
مُسَوِّمِينَ: معَلمين بعلامات، الوسم : العلامة.
لِيَقْطَعَ طَرَفًا: ليهلك طائفة.
يَكْبِتَهُمْ: يخزيهم و يذلهم، يصرعهم ويهلكهم. أو يخزيهم و يَغُمهم بالهزيمة.
خَائِبِينَ: خاسرين لم يحققوا ما تمنوه.

ويمدهم بالملائكة تتنزل عليهم حقيقةً لا مجازًا. يتنزل فوج الملائكة متتابعًا في البداية في ألفٍ منهم كما في سورة الأنفال: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ،الأنفال - ٩). ويزداد العدد إلى ثلاثة آلاف منزلة من لدن العزيز الحكيم، ثمَّ إلى خمسة آلاف مميزين بوسمٍ خاص وسيما مميزة لهم ولخيولهم. تتنزل الملائكة تبشر المؤمنين بالنصر وتثبت قلوبهم وتطمئنهم، ولكن يبقى النصر كله من فضل الله عليهم. كان هذا النصر بمثابة إهلاك لهذه الفئة المستكبرة من صناديد قريش الذين انقلبوا في قليب بدر، وخزي وإذلال لمن بقي منهم ليعودوا بعدها إلى مكة جارِّين خلفهم ذيول الهزيمة المنكرة، خائبين لم يحققوا ما خرجوا إليه. هؤلاء الذين عادوا بعد عام عازمين على قتل رسوله ﷺ، وكل هذا لم يكن إلا بتدبير الملك ولم يكن لرسول الله ﷺ منه شيء[24]، فسبحانه إن شاء تاب على طائفةٍ منهم فضلًا منه– كما سيحدث لاحقًا – أو يعذبهم بظلمهم وكبرهم وصدهم عن سبيل الله فهم أهل للعقوبة. وفي النهاية، كل شيءٍ، سواء في السماوات العلى أو في الأرض، هو ملكٌ لله الملك الذي برحمته يغفر لمن أراد وإن شاء عذب بعدله. وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ التذكير بالتاريخ – سواءً كان ما حدث للأمم السابقة أو لأمة الإسلام في تجارب سابقة – أسلوبٌ تربويٌ بديعٌ انتشر في ثنايا القرآن الكريم[25] والسنة المطهرة[26].

---

[24] وسبب نزول هذه الآية كما روى أنس رضي الله عنه أنه لمَّا كانَ يومُ أُحُدٍ كُسِرَت رَباعِيَةُ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وشُجَّ فجعلَ الدَّمُ يسيلُ علَى وجهِهِ وجعلَ يمسحُ الدَّمَ عن وجهِهِ ويقولُ كيفَ يُفلِحُ قومٌ خضَّبوا وجهَ نبيِّهِم بالدَّمِ وَهوَ يَدعوهم إلى اللَّهِ فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ، آل عمران – 128). صحيح ابن ماجة.

[25] وهذا ما لا يمكن إحصاؤه هنا ولكن نكتفي بما ذكره الله عزَّ وجل في قصة موسى وفرعون المبثوثة في القرآن الكريم ومنها: (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، القصص - ٣)

[26] كما في حديث خباب بن الأرت، وفيه: شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ،

التدبر البلاغي:

وفي كلمة (أَذِلَّةٌ) دلالة على مدى الضعف الذي كانوا عليه يوم بدر، وبرغم هذا الضعف حدث النصر الذي يستوجب الشكر ولا يحقق عبودية الشكر إلا من اتقى. وتأمل الإستفهام بالنفي في (أَلَن يَكْفِيَكُمْ) الذي يوحي بفضل الله عليهم، والفعل المضارع في (يُمِدَّكُمْ) يفيد الاستمرار بالإضافة إلى أنَّ كلمة المدد تدل بحد ذاتها على الدعم الذي لا ينقطع، وكذلك زيادة العدد من (ثَلاثَةِ آلافٍ) إلى (خَمْسَةِ آلافٍ) تؤكد هذا المعنى وتوضحه. وما أجمل هذا التناغم اللفظي بين (مُنزَلِينَ) و(مُسَوِّمِينَ) على اختلاف القراءات. أمَّا (وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ) فتشعر معها بسرعة استجابة الكفار وغضبهم، وما كان هذا إلا استدراجًا من الله لهم ليلقوا حتفهم. وكلمتي (بُشْرَى) و(لِتَطْمَئِنَّ) تُريحان القلب وتَزِيدانه سكونًا. وأسلوب القصر في (وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ) يفيد الحصر.

ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ. صحيح البخاري.

المقطع الثالث (جهاد النفس قبل الجهاد في الميدان)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (آل عمران، ١٣٠- ١٣٦)[27]

تدبر المعنى العام:

تنتقل بنا الآيات إلى موضوع آخر، قد يظن البعض للوهلة الأولى أنَّه غير مترابط مع الحديث عن غزوة أُحُد، ولكنه صورة أخرى من صور الجهاد ألا وهو جهاد النفس، فالمعركة ليست وحدها في الميدان بل المعركة الأولى تكمن في النفس، والنفوس التي لا تنتصر داخليًّا لن تستطيع أن تنتصر في معركة السيف. وفي هذه الآيات المباركات، يذكر الله عزَّ وجل كبيرة واحدة يمكن أن تسقط الأمم وتهلك المجتمعات، ألا وهي كبيرة الربا، ثم يتبعها سبحانه وتعالى بالنظام الأمثل، نظام التكافل المبني على التراحم والصدقات. ولكن

---

[27] الرِّبَا: القرض الذي جرَّ نفعًا.
السَّرَّاء وَالضَّرَّاء: أي اليسر والعسر، في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض.
الْكَاظِمِينَ: الكاظم هو الممسك على ما في نفسه عند الغضب.
الْغَيْظَ: أشد أنواع الغضب.
الْمُحْسِنِينَ: المحسن أي المصلح فاعل الخير، والكلمة مشتقة من الفعل أحسن وهو فعل الشيء الحسن.
فَاحِشَةً: شيء قبيح

هذا النظام لابد له من مواصفات معينة في القائمين على تطبيقه ومن ثَمَّ جاءت هذه الآيات توضح هذه الصفات وتثني عليها، وها هو التفصيل.

إنَّ الربا جريمة كبيرة، الجريمة والكبيرة التي تستوجب للحد منها الحرب من الله ورسوله[28]، تجعل الأغنياء أكثر ثراءً وتجعل الفقراء أكثر فقرًا، ولذلك جاء تحريمه في الآيات التي بين أيدينا. فلقد جاء النهي عن الربا المضاعف (لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً)، وهنا ربما يظنُّ أَحَدٌ أنَّ الزيادة القليلة مباحة وهذا من سوء الفهم فضلًا عن الجهل، فكلُّ قرضٍ جرَّ نفعًا فهو ربا، كما هو معلوم من الدين بالضرورة. إنَّ آية الربا في آل عمران خرجت – كما يقول العلماء – مخرج الغالب[29]، أي نزلت وهي تعالج واقعًا في الجزيرة العربية، فقد كانوا يأكلون فيه الربا أضعافًا مضاعفة، والتحريم التام جاء في سورة البقرة[30]. ولأن المال محبب إلى النفوس، جاءت الآيات تحث على تقوى الله وأنَّ هذا سبيل الفلاح، وتحذر من مغبة العصيان، وتحضُّ على طاعة الله ورسوله التي بسببها تتنزل الرحمات. ثم تنطلق الآيات ترسم وصفًا دقيقًا لصفات هذه الفئة المؤمنة التي تستطيع أن تنتصر في معركة النفس وشهوة المال، هذه الفئة التي تهرول نحو الجنان بأعمال القلوب وأعمال الأبدان. انتصرت على شهوتها، فأنفقت المال في العسر واليسر على حدٍّ سواءٍ، وليس هذا فحسب بل ارتقت في معارج تزكية النفس فكظمت الغضب الذي يشعل القلب[31] وسمت أكثر حتى عَفَت

---

[28] كما قال سبحانه وتعالى: (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ، البقرة - ٢٧٩)

[29] وكذلك (إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) في النهي عن إكراه الإماء على البغاء كما في سورة النور (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، النور - ٣٣)

[30] (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، البقرة - ٢٧٥) – (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ، البقرة - ٢٧٦) – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، البقرة - ٢٧٨)

[31] قال الرسول ﷺ: ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّديدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ. متفق عليه.

عمن أساء إليها، فنالت بهذه الأخلاق الكريمة درجة الإحسان التي يحبها الله عزَّ وجل[32].

ولأنه سبحانه هو الخالق[33]، فهو يعلم بعلمه المسبق أنَّه لا محالة أن يقع الإنسان في الذنب[34]، ولكن يبقى عدم الإصرار على الذنب وسرعة التوبة منه هما الفارقان الرئيسان الَّذان يتفاضل بهما الناس في مراتب المتقين. هؤلاء وجبت لهم جنان الرحمن لما بذلوه من أعمالٍ صالحات في الحياة الدنيا، فلم ينعزلوا بدينهم عن دنيا الناس ولم يكونوا سلبيين، بل اجتهدوا وجاهدوا أنفسهم وأصلحوا دنياهم بدينهم، فنعم أجر العاملين. وما أحوج الأمة – ورجالها ونساءَها - أن تتحلى بهذه الصفات الكريمة من نفقة في كل وقتٍ وحين، ومن تحكم للمشاعر التي ربما تفضي للشحناء والبغضاء ومن عفوٍ جميل يذيب ما بين الأعداء فينقلب العدو وليًّا حميمًا[35].

التدبر البلاغي:

وما أوقع كلمة (تَأْكُلُواْ) في النفس، إذ تتصورها لقمة غير سائغة لا يجب أن تقترب من فم المؤمن، والفوز في (تُفْلِحُونَ) متناسب مع نبذ المعاملات الفاسدة، والرحمة في (تُرْحَمُونَ) نابعة من طاعة الله والرسول ﷺ. وتأمل معي الحركة المتمثلة في (وَسَارِعُواْ[36]) نحو مساحة يحاول المرء أن يستوعب مداها و (عَرْضُهَا) فلا يستطيع من عظمة الجزاء إلا أن يسرع

---

[32] ومن أمثلة ذلك أنه حُكِيَ أنَّ جارية كانت تصبُّ الماء لعلي بن الحسين، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجَّه، أي: جرحه، فرفع رأسه إليها، فقالت له: إنَّ الله يقول: وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ فقال لها: قد كظمت غيظي. قالت: وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ قال لها: قد عفوت عنك. قالت: وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، قال: اذهبي فأنت حرَّة لوجه الله.

[33] (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، الملك - ١٤).

[34] عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ. أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ.

[35] قال تعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، فصلت – ٣٤)

[36] والمسارعة ذكرت في آية الحديد بالمسابقة، (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، الحديد - ٢١)

أكثر وأكثر. والتضاد بين (السَّرَّاء) و(الضَّرَّاء) يفيد الشمول، والإرتقاء في (الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) نحو (الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) يفيد التدرج في معارج السمو للنفس البشرية.

المقطع الرابع (رفع الهمة والحكمة من الإبتلاء)

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (آل عمران، ١٣٨- ١٤٣)[37]

تدبر المعنى العام:

تعد هذه الآيات المباركة منهجًا تربويًّا ربانيًّا في التعامل مع حالات الإنكسار التي تمر على الفرد وعلى الأمة. يستهل الله عزَّ وجل هذه الآيات التي بين يدينا بالتنبيه

---

[37] خَلَتْ: مضت
سُنَنٌ: أمم أو شرائع
بَيَانٌ: شيء واضح
لا تَهِنُوا: من الوهن، أي لا تضعفوا ولا تتوانوا عن مقاتلة الكفار
يَمْسَسْكُمْ: من مسَّ أي احتكاك الشيء بالشيء
قَرْحٌ: جراح
نُدَاوِلُهَا: نصرفها وننقلها
يُمَحِّصَ: أي ينقي من الذنوب
يَمْحَقَ: ينقص والمعنى هنا أي يهلك ويبيد
حَسِبْتُمْ: ظننتم
لَمَّا: حرف نفى أقوى نفيًا من (لم)
تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ: تتمنون الشهادة في سبيل الله

على قضيةٍ هامة قد تغيب عن كثير من الناس وخصوصًا وقت الأزمات. إنَّ سنة الله عزَّ وجل في خلقه أنَّ الباطل وإن علا وارتفع يومًا ما فمآله إلى الهلاك، وكم من أمَّةٍ كذَّبت نبيها فما نتيجة في النهاية؟ كانت الخسران (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا، الطلاق – ٩). وهذه الحقيقة هي بمثابة توضيح ليس للمسلمين وحدهم بل لعموم الناس ولكن تتلقاه القلوب المؤمنة هداية وموعظة لهم دون غيرهم (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ، ق – ٤٥). ثم نصل إلى هذه الآية العظيمة التي تقرر أصلًا هامًّا في النفوس النقية ألا وهو رفعة المؤمن المطلقة، سواء أكان منتصرًا أم مهزومًا، فهو بأصل الإيمان المستقر في قلبه أكثر رفعةً وأعلى شأنًا، فلا ينبغي للمؤمن أن يصيبه الوهن والحَزَن ما دام الإيمان راسخًا في القلب[38]. وتصبيرًا لهذه النفوس التي نزفت الدماء وأصابتها الجراح، يذكرهم الله عزَّ وجل بأنَّ هذه الآلام قد ذاقها خصمهم من قبل – أي يوم بدر – وشتان بينهما[39]، وهكذا تتبدل الأحوال بين الناس لحكمةٍ من العزيز الحكيم. ومن رحمة الله بعباده أنَّه وضَّح لهم فيضًا من هذه الحكمة ألا وهي أن يتضح علم الله المسبق في المؤمنين فيزدادوا إيمانًا ويصطفي منهم الشهداء وينقي الصف المؤمن من خبث المنافقين، وفي النهاية ليهلك ويبيد الكافرين. ثم تطرح الآيات سؤالًا استنكاريًا للفئة المؤمنة: هل ظننتم أنَّ طريق الجنة يسير دون بذل الغالي

---

[38] وكذلك فعل الرسول ﷺ عندما أراد أبو سفيان بن حرب أن يفت في عضدهم، فقال: اعْلُ هُبَلْ، اعْلُ هُبَلْ، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَلَا تُجِيبُوا له؟ قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما نَقُولُ؟ قالَ: قُولوا: اللَّهُ أَعْلَى وأَجَلُّ، قالَ: إنَّ لَنَا العُزَّى ولَا عُزَّى لَكُمْ. فَقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَلَا تُجِيبُوا له؟ قالَ: قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما نَقُولُ؟ قالَ: قُولوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، ولَا مَوْلَى لَكُمْ.

[39] قال تعالى: (وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا - النساء، ١٠٤)

والنفيس لنصرة دينه والجهاد في سبيله؟ إنَّ من حكمة الله أن يُمْتَحَنْ المؤمنون ليظهر علم الله الأزلي في من جاهد ومن صبر. ولكن ما أسهل الدعوى التي تقال في أوقات الرخاء على إمكانية الثبات في أوقات الشدة، فيذكِّر الله عزَّ وجل هذه الفئة بسابق أمانيهم ورغبتهم في الموت في سبيل الله فها هو ذا قد جاء واقعًا يتمثل أمامهم رأي العين[40].وسنة الابتلاء[41] وسنة تداول الأيام وكذلك سنة التدافع[42] هي من سنن الله الكونية التي لا تحابي أحدًا، (فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا ، فاطر – ٤٣)[43].

التدبر البلاغي:

إنَّ فِعْلَي الأمر (فَسِيرُواْ) و(فَانظُرُواْ) مع استخدام حرف العطف (ف) في كليهما يوحي بسرعة الاستجابة التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون. وتكرار النهي في (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا) يؤكد المعنى، والخطاب من لدن العزيز الكريم في (وَأَنتُمُ

---

[40] وبمعنى مقارب ما ذكره الله عزَّ وجل في سورة النساء، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً، النساء - ٧٧)

[41] كما في قوله تعالى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، العنكبوت – ٢)

[42] كما في قوله تعالى: (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ، البقرة – ٢٥١) – (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الحج – ٤٠)

[43] وكذلك في قوله تعالى: (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا، الأحزاب -٦٢) – (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا، الفتح - ٢٣)

الأَعْلَوْنَ) تشعر معه بالرفعة والعزة. والفعل (يَتَّخِذَ) ونسبته إلى ربِّ العزَّة توحي بالمعية والإصطفاء. والإستفهام الإستنكاري في (أَمْ حَسِبْتُمْ) يرد القلوب الحائرة إلى صوابها. وتأمل- من جهة – التضاد في التمنِّي واللقاء في كلمتي (تَمَنَّوْنَ و(تَلْقَوْهُ)، ومن جهة أخرى تكرار المعنى في (رَأَيْتُمُوهُ) و(تَنظُرُونَ) يؤكد حقيقة وصعوبة الأمر وتحوله من التمني إلى الواقع. وما أوقع تنوع الصفات - للمؤمنين كما في (لِّلْمُتَّقِينَ) و(مُّؤْمِنِينَ) و(الصَّابِرِينَ) وما يضادها في صفات الكافرين في (الْمُكَذِّبِينَ) و(الظَّالِمِينَ) و(الْكَافِرِينَ) – على النفس.

المقطع الخامس (مكانة الرسول ﷺ وما يجب أن يكون عليه أتباعه)

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (آل عمران، ١٤٤-١٥١)[44]

---

[44] أَعْقَابِكُمْ – عَقِبَيْهِ: من العقب، وهو مؤخر القدم.
كِتَابًا: مكتوب عليهم
مُؤَجَّلاً: مؤقتًا لا يتقدم ولا يتأخر
يُرِدْ: يريد (جُزِمَ لأنه فعل الشرط)
وَكَأَيِّن: وكم
رِبِّيُّونَ: ربانيون، علماء ومُصْلِحين، وقيل الأحبار وأرباب العلم، وقيل هم العلماء والفقهاء
وَهَنُواْ: جبنوا وضعفوا، والوهَن هو الضعف

تدبر المعنى العام:

وبعدما طافت الآيات في المقطع السابق ترفع من همة المؤمنين رغم انكسارهم وتوضح لهم سنة الله عزَّ وجل الماضية في محق الكافرين المكذبين، وتُجْلِي للمؤمنين بعضًا من المنح في هذه المحنة، كمنحة تنقية الصف ومحق الكافرين ورفع الدرجات واتخاذ الشهداء، جاءت الآيات التي في هذا المقطع تضرب مثالًا لما حدث للأنبياء وأتباعهم في الأمم السابقة، ولم تكن العبرة أبدًا باتباع النبي ﷺ في شخصه وصورته البشرية، بل اتباع أوامره التي يبلغها عن ربه. فنرى أنَّ هذه الآيات بدأت بإقرار العبودية لله، وإقرار حقيقة وعقيدة المؤمن في الرسول ﷺ، فهو رسول من لدن الله عزَّ وجل يجب أن نتبع أوامره ونجتنب نواهيه لأنه مبلغٌ وبشيرٌ ونذير. ولكن لا يجب أن يربط الإيمان بالله بحياة الرسول ﷺ وبقائه حيًّا على وجه الأرض، فإن مات أو قتل أفيعذر أحدٌ في عدم الثبات على الدين وإرتداد للكفر تي أطلقها كفار قريش كان لها أثرٌ في قلوب كثير من المؤمنين، فأصابهم

سَبِيلِ اللَّهِ: السبيل أي الطريق، وسبيل الله يقصد به هنا الجهاد
ضَعُفُواْ: أي عن الجهاد
اسْتَكَانُواْ: خضعوا لعدوهم أو ذلوا لعدوهم، والاستكانة هي السكون
إِسْرَافَنَا: الإسراف هو تجاوز الحد في أي فعل من أفعال الإنسان
ثَبِّتْ: من الثبات وهو ضد التزعزع والتحرك
ثَوَابَ الدُّنْيَا: أي النصر
ثَوَابِ الآخِرَةِ : أي الجنة
يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ: أي إلى الكفر
مَوْلاكُمْ: ناصركم
سُلْطَانًا: دليل وحجة وبرهان
مَأْوَاهُمُ: ملجأ أو مكان يحتمي به
مَثْوَى: المقر والمستقر

القنوط بل وألقى بعضهم السيف يأسًا[45]. فجاء النكير من الله عزَّ وجل لهؤلاء الذين ارتبطت أذهانهم بحياة الرسول ﷺ ونسوا مكانته العليا وعبوديته التي تقضتي الموت كسائر البشر والمخلوقات، فمن يرتد عن دينه فلن يؤثر هذا في ملك الله شيئًا ولن يضره سبحانه شيئًا، ولكنه سبحانه يجزي من ثبت وشكره على نعمة الإيمان خير الجزاء. إنَّ هذا الموقف وهذه الآيات كانت بمثابة الإعداد لهذه النفوس التي ارتبطت حبًّا وعشقًا للرسول ﷺ أنَّه يومًا ما سيغادر وينتقل إلى الرفيق الأعلى. وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك بعد قرابة سبع سنوات عندما توفي الرسول ﷺ، فقيض الله عزَّ وجلَّ عبده أبا بكر الصديق يُذَكِّر الصحابة بهذه الآيات ففاءوا برحمة من الله وعصمهم من الفتنة[46]. وبما أنَّ محمدًا ﷺ بشرٌ

---

[45] في السيرة النبوية لابن هشام، ودلائل النبوة للبيهقي :(انتهى أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتِل رسول الله ﷺ، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قُتِل)

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال عن عمّه أنس بن النضر: (فلما كان يوم أُحُد، وانكشف المسلمون، قال – أي أنس بن النضر: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ مما صنع هؤلاء -يعني المشركين- ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ الجنة وربِّ النضر، إني أجد ريحها من دون أُحُد).

وكذلك ثابت بن الدحداح رضي الله عنه لمَّا رأى الناس قعدوا على الأرض ذهب إليهم وقال: إن كان محمدٌ ﷺ قد قتل فإن الله حي لا يموت، ثم قاتل حتى استشهد.

[46] ففي صحيح البخاري أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَاتَ، فَقَامَ عُمَرُ يقولُ: واللَّهِ ما مَاتَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واللَّهِ ما كانَ يَقَعُ في نَفْسِي إلَّا ذَاكَ، ولَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أيْدِيَ رِجَالٍ وأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أبو بَكْرٍ قَالَ: أيُّها الحَالِفُ، علَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أبو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ أبو بَكْرٍ وأَثْنَى عليه، وقَالَ: ألا مَن كانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فإنَّ مُحَمَّدًا قدْ مَاتَ،

فكتب عليه الموت لا الخلود، وهذا قدر الله في خلقه أنَّهم إلى زوال في ساعة لا يستأخرون عنها ساعة ولا يستقدمون (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، آل عمران – ١٨٥)[47]، وهو سبحانه الحي الذي لا يموت (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ، الفرقان – ٥٨). وهذه النفوس إمَّا أن ترجوا الجزاء في الدنيا وإمَّا الجزاء في الآخرة، ومن رحمته أنَّه أعطى الدنيا لمن أحب ولمن لم يحب ولكنه أعطى الآخرة لمن يحب وهذا جزاء الشاكرين على نعمائه[48]. ولكم يا معشر المؤمنين مثالٌ صريحٌ في كثيرٍ من الأنبياء الذين قاتلوا – وفي قراءة أخرى قُتِلَ – معه أصحابه الأفاضل من العلماء والمصلحين والربانيين وبرغم هذا الإبتلاء إلا أنهم لم ينكسروا نفسيًّا ولم يذلوا ولم يضعفوا عن مواجهة عدوهم ويستكينوا لهم، وهؤلاء أحبهم الله لصبرهم على هذا البلاء. وهذه الثُّلة المباركة التي صبرت، استعانت بالذكر والدعاء فطلبوا من الله الغفران على ما بَدَرَ منهم من ذنوب وعلى ما تجاوزوه في أمور أنفسهم وطلبوا من الله كذلك أن يرزقهم الثبات وينصرهم على أعدائهم من

ومَن كانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فإنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، وقَالَ: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ، الزمر - ٣٠)، وقَالَ: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ، آل عمران – ١٤٤)، فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ. وقالت عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَقَدْ بَصَّرَ أبو بَكْرٍ النَّاسَ الهُدَى، وعَرَّفَهُمُ الحَقَّ الذي عليهم، وخَرَجُوا به يَتْلُونَ (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ، آل عمران – ١٤٤).

[47] وكذلك (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ، الأنبياء – ٣٥)

[48] قال تعالى: (فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، البقرة – ٢٠٠:٢٠٢)

الكافرين. فأثابهم الله من رحمته في الدنيا والآخرة[49]، في الدنيا كالنصر – سواء كان نصر التمكين[50] أو نصر التبليغ – و سعادة القلب وراحته في الحياة الطيبة[51]. وفي الآخرة بالجنة التي أعدها الله لمن أحبهم من المحسنين. وكما ضربت الآيات المثال بمن يجب أن يكون قدوة، حذَّرت كذلك من طاعة الكفار لِمَا له من بالغ الأثر على رسوخ الإيمان في القلب، فاتِّباع الكفار لن يجدي إلا خيبةً وخسرانًا، بل يجب على المؤمنين بدلًا من طاعة الكفار أن يفوضوا أمرهم إلى الله لأنه ولي المؤمنين[52] وهوخير وكيلٍ وخير ناصرٍ ومعين[53]. فهو سبحانه قادرٌ على أن يلقي الرعب[54] في قلوب الكافرين – في وقت القتال وغيره - بما قدموه من أعمال الكفر التي ليس لهم فيها حجة ولا دليل، فكان جزاؤهم النار مستقرًا ومقامًا (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، الفرقان – ٦٦) وبئس المقام لهم على ظلمهم.

---

[49] كما قال الله تعالى: (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ، غافر – ٥١)

[50] كما قال سبحانه وتعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، النور – ٥٥)

[51] كما في قوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، النحل – ٩٧)

[52] كما قال الله عزَّ وجل: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، البقرة، ٢٥٧)

[53] كما قال سبحانه وتعالى: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا، النساء – ٤٥)

[54] ففي صحيح البخاري، قال الرسول ﷺ: (نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)

التدبر البلاغي:

وفي هذا المقطع نلاحظ تكرار الصور البلاغية، فمثلًا ما أجمل تكرار أسلوب القصر في (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ) و (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) الذي يفيد الحصر، والتخيير بين حالتي الفراق في (مَّاتَ أَوْ قُتِلَ) الذي يفيد العموم، والتضاد في (ثَوَابَ الدُّنْيَا) و(ثَوَابَ الآخِرَةِ) – مع التكرار – يبرز المعنى ويوضحه. وتأمل معي الحركة في هذه الصورة الحية (انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) و(يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ) وكأنَّ إنسانًا يدور للخلف مرتكزًا على عقبه منتكسًا للوراء. وتكرار لفظ (الشَّاكِرِينَ) في (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) و(وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ) يؤكد على عِظَمِ فضيلة الشكر لله عزَّ وجل. وتعدد الصفات في (فَمَا وَهَنُواْ) و(وَمَا ضَعُفُواْ) و(وَمَا اسْتَكَانُواْ) يبرز التدرج في مراحل الإبتلاء مع الثبات الذي ينتقل من مرحلة إلى أخرى، وكذلك تعدد مراحل الدعاء في (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) و(وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) و(وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا) و(وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) يبرز التدرج في معارج العلا طلبًا لتطهير النفس التي هي سببٌ للنصر والتمكين.

المقطع السادس (أحداث الغزوة بالتفصيل

وموقف المنافقين)

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ

مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّه تُحْشَرُونَ (آل عمران، ١٥٢-١٥٨)[55]

---

[55] صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: أنجز لكم وعده بالنصر
تَحُسُّونَهُم: الحسُّ هو القتل الذريع، تقتلونهم قتلًا شديدًا وتستأصلونهم
بِإِذْنِهِ: بإرادته
فَشِلْتُمْ: جبنتم عن القتال، والفشل هو ضعف القلب والتراخي
تَنَازَعْتُمْ: اختلفتم، والمنازعة يعبر بها عن المخاصمة والمجادلة
فِي الأَمْرِ: أي أمر الرسول ﷺ بعدم النزول من على جبل الرماه
وَعَصَيْتُم: أي عصيتم أمره
صَرَفَكُمْ: أي أبعدكم
لِيَبْتَلِيَكُمْ: ليختبركم، ويمتحنكم
تُصْعِدُونَ: تفِرُّون في الجبال، والصعود هو الذهاب لمكان مرتفع
وَلاَ تَلْوُونَ: لا تلتفتون، لا تُعَرِّجون
يَدْعُوكُمْ: يناديكم
فِي أُخْرَاكُمْ: أي من ورائكم ومن خلفكم
فَأَثَابَكُمْ: فجازاكم
غَمًّا بِغَمٍّ: في حزنٍ متواصل، وقد يقصد بالغم الأول الحزن بسبب فوات النصر، والغم الآخر الحزن بسبب مقتل الصحابة وإصابة الرسول ﷺ وإشاعة مقتله، وعدم الإنصياع لكلامه.
تَحْزَنُوا: الحَزَن هو خشونة في الأرض، والحَزَن كذلك خشونة وألم في النفس وضده الفرح.
فَاتَكُمْ: الفوت هو بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه
أَمَنَةً: أمن وعدم خوف
نُعَاسًا : النوم الخفيف
يَغْشَى: يغطي
أَهَمَّتْهُمْ: من الهم، وهو الحزن الذي يذيب القلب
الْجَاهِلِيَّةِ: كلمة تقال على الفترة قبل الإسلام، أي الكفر
يُبْدُونَ: يُظْهِرون
بَرَزَ: خرج، ظهر
مَضَاجِعِهِمْ: المضجع هو السرير، والمعنى هنا أي مصرعهم ومستقرهم

تدبر المعنى العام:

ثم تنتقل الآيات - بعدما أكدت على مفهوم وحدة الدين وما يتبعه من الإبتلاء الذي كان في الأمم السابقة ونجح فيه ثلة مباركة من الربانيين المحسنين – إلى مشاهد واقعية من المعركة. هذه المشاهد التي رآها الصحابة بأعينهم رأي العين منذ سويعات قليلة، مشاهد النصر الذي كاد أن يتحقق ثم تلته مشاهد المصيبة. تأتي هذه الآيات لتصف هذا التحول الرهيب من النصر إلى المصيبة، وتصف كذلك السبب الرئيسي وكيفية العلاج. ففي البداية، امتنَّ الله على عباده بوعده[56] الذي وعدهم إياهم بالنصر إذ نصروه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ، محمد – ٧)، فكان نصرًا مبينًا يذكرهم بيوم بدر إذ أثخنوا في القتل وكان هذا بمشيئة الله سبحانه وتعالى، ولكن بمجرد أن دبَّ النزاع والشقاق بين طائفة منهم[57]، ليس هذا فحسب بل عصيان واضح لأمر الرسول ﷺ الواضح الذي لا يلتبس أبدًا. حدث كل هذا بعدما رأوا بأعينهم ما أزاغ قلوبهم من فتنة الدنيا[58]، ولكن هذا فقط هو العَرَض أما السبب الرئيسي فهو حب الدنيا، فمن

الْجَمْعَانِ: الفريقان
اسْتَزَلَّهُمُ: أوقعهم في الزلل أي المعصية وهي الفرار من الجهاد
عَفَا: غفر
غُزًّى: أي كانوا في الغزو
حَسْرَةً: ألم الندم

[56] والوعد الذي كان وعدَهم على لسان نبيه يوم أُحُد، قول الرسول ﷺ للرماة: (اثبتوا مكانكم ولا تبرحوا، وإن رأيتمونا قد هزمناهم، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم).

[57] على جبل الرماه.

[58] أي الغنائم.

هؤلاء من كان يريد زهرة الحياة الدنيا كما أنَّ منهم من كان يريد ثواب الآخرة[59].
وما كان صرف المؤمنين عن الكفار وتحول النصر الذي كان في متناول اليد إلا من أجل الإبتلاء ومن رحمته سبحانه وتعالى أنه عفا وغفر عمَّا بدر من هذه الطائفة المؤمنة. ثمَّ تستمر الآيات في سرد أحداث غزوة أُحُد، تستمر على هذه الوتيرة في كشف الخطأ والتنبيه على السبب فأشارت إلى البلاء الذي عمَّ كثيرًا من الصحابة وليس فقط من كان على جبل الرماه، إلى هؤلاء الذين عندما دارت الحرب عليهم وعندما أشيع أنَّ الرسول ﷺ قُتِلَ فرَّوا في الجبال، ليجدوا بعدها الرسول ﷺ يناديهم من خلفهم وهم يستمعون ولا يجيبونه بل لا يلتفتون إليه، فما أعظمه من بلاء. وهم على هذه الحالة ركبهم الغمُّ فوق الغمِّ، غمُّ المعصية فوق غمِّ فوات النصر والهزيمة، غمُّ عدم الاستجابة لأمر الرسول ﷺ فوق غمِّ القتل والتمثيل بالجثث، غمُّ الفرار من الجهاد فوق غمِّ الجراح التي تتدفق منهم. هذه الغموم المتراكبة تدفقت إلى قلوبهم وفي هذا حتى لا يحزنوا على ما فاتهم من النصر والغنيمة ولا ما أصابهم به من الجراح وعلو الكفار والفرار ومعصية الرسول ﷺ، فهو سبحانه خبير بنواياهم فيما فعلوه. ثمَّ امتنَّ الله عليهم بالرحمة التي تمثلت في سكينة النعاس الذي أصاب بعضًا[60] منهم، ولكن هناك طائفة لم تنل هذه السكينة وأصاب أنفسهم الهم[61]. تلك الطائفة بدأت في الظن السيء بالله عزَّ

---

[59] كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما شعرت أنَّ أحدًا من أصحاب النبي ﷺ كان يريد الدنيا وعرَضَها، حتى كان يوم أُحُد.
[60] عن أبي طلحة قال : رفعت رأسي يوم أُحُد ، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أَحَدٌ إلا يميد تحت حجفته من النعاس . سنن الترمذي.
[61] يقول بعض أهل العلم أنَّ تلك الطائفة هى من المنافقين الذين تبعوا الرسول ﷺ، ولكن سياق الآيات لا يوحي بذلك. بل ما يغلب على الظنِّ أنهم من المؤمنين ولكنهم أقل إيمانًا من الطائفة الأولى، كما في قصة طالوت في سورة البقرة: (فَلَمَّا

وجل وهو ظن أهل الجاهلية الذين كانوا لا يرون أنه سبحانه ليس له الأمر، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا. في خضم هذه الأزمة، اضطربت القلوب وتساءلوا هل لنا من أمرنا شيء حتى ننجو بأنفسنا، فهنا جاء التنبيه صريحًا أنَّ الأمر كله لله ولا يملك أحدٌ من أمره شيئًا. هذه الطائفة كانت تبدي في أنفسها غير ما يبدو على لسانها، كان وا في الحقيقة يخفون ترددهم، وظهر هذا جليًّا في قولهم أنَّه لو كان أمرهم في أيديهم ما حدثت كل هذه المصائب وما تعرضوا لهذا الموقف العصيب والقتل، لتنطلق الآيات بعدها تقرُّ بحقيقة الموت التي تردد فيها هؤلاء. إنَّ الموت مكتوبٌ محددٌ سلفًا ولا يتحدد بمعركةٍ أو جهاد، فلهؤلاء الذين غابت عن أعينهم هذه الحقيقة الواضحة جاءت الآيات تقول حتى لو كنتم في بيوتكم مطمئنين لظهر الذين قدر لهم الموت وخرجوا لملاقاة حتفهم. ومرة أخرى تأتي حكمة الله واضحة في الإبتلاء، إنه الإختبار لما في الصدور وتنقية الصفوف فهو سبحانه العليم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ثمَّ تتجلى نعمة الله على هذا الصف المؤمن الذي ارتكب كبيرة من الكبائر وهي التولي يوم الزحف - وما كان هذا إلا مما كسبت أيديهم وطاعتهم للشيطان – فعفا عنهم لأنه حليمٌ لا يعاجل بالعقوبة غفور يحب العفو والمغفرة. ثمَّ تستمر الآيات في نداء هذا الصف ونعته بالإيمان وينهاهم عن التشبه بالكفار في معتقدهم الفاسد الذي يَقْرِنُ الموت بالجهاد. إنَّ المنافقين الذين هم أشد خطرًا من الكفار لديهم خلل رهيب في قضية الموت فيظنون أنَّ الموت مرتبط بالسعي والجهاد، فالضرب في الأرض مظنة الموت

جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، البقرة – ٢٤٩)، فهنا التصريح واضح أنَّ بعضًا من الطائفة المؤمنة شعروا حينًا بالعجز والخوف وصرحوا أنهم لا طاقة لهم بجالوت وجنوده، والله أعلى وأعلم.

والقتال والغزو مظنة القتل. ولا يكتفون بهذا القول في أنفسهم بل ينشرونه فيما بينهم وبين أوساط المسلمين ليفتُّوا في عضد الصف المؤمن.

وهذه الآية لها مظان كثيرة في التأويل، فيحتمل أن يكون (إِخْوَانِهِمْ) إشارة إلى إخوة النسب، أي أنَّ المنافقين يقولون هذا القول للمؤمنين من أبناء قبيلتهم، حتى يلقوا الحَزَنَ والألم في قلوب المؤمنين. وقد تكون (إِخْوَانِهِمْ) إشارة إلى أخوة النفاق، أي أنَّ المنافقين يذكرون المؤمنين فيما بينهم ويقولون لو استمعوا لنا وجلسوا معنا ما قتلوا في المعركة، وهم على هذه الحالة في الحقيقة يزيدهم الله ألمًا وحسرة على ما فاتهم من نعمة الإسلام، فكلما ازداد قولهم الظاهري ازدادت حسرتهم لكونهم يعلمون أنَّ المؤمنين على الحق المبين (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ، النمل – ١٤). وليعلم الجميع أنَّ الموت بيد الله كما أنَّ الحياة بيده سبحانه وتعالى فهو يحيي ويميت، وهو بصير سبحانه بما يقع من عباده من أعمال وأفعال. وللمؤمنين جزيل الثواب إن ماتوا أو قتلوا في خضم المعارك، فلهم المغفرة والرحمة التي هي خير مما في الدنيا من نعيم زائل، وبغضِّ النظر عن سبب مفارقة الحياة، سواء كان موتًا أو قتلًا، فالجميع إلى الله سائر وإليه تحشر الخلائق.

التدبر البلاغي:

مرة أخرى تأتي الأفعال متتابعة في (فَشِلْتُمْ) و(وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ) و(وَعَصَيْتُم) لتبرز مراحل السقوط، من الإنهيار النفسي ثم التنازع ثم العصيان. والصورة الحسية المتجسدة في (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ) تليها الصورة الدقيقة لاضطراب النفس البشرية في (فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) تجعل القارئ يعيش أحداث الغزوة بنفسه ووجدانه ومشاعره وكأنَّه واحد من

هؤلاء الذين فروا في الجبال فأصابهم غم النفس. وكذلك التشبيه في (أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى) وكأنَّ النعاسَ غطاءٌ يسدل على النفوس السكينة والطمأنينة. وتأمل معي الفرق الدقيق بين (يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ) و(يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ)، فالأولى تحتوي على (مِن) التي تبرز حالة الجحود التي طالت استفسارهم، والثانية توضح حالة التفلت التي سوف يكونون عليها لو امتلكوا ولو شيئًا صغيرًا من أمرهم. وما أعجب كلمة (مَضَاجِعِهِمْ)، فالمضجع كما ذكرنا هو مكان الطمأنية والسكون والنوم، ولكن تمَّ استخدامه هنا إشارة إلى مثواهم ومماتهم ومصرعهم، وكذلك كلمة (إِخْوَانِهِمْ) وقد أشرنا لها في التدبر العام للآيات. وما أوقع التناغم بين لفظتي الموت والقتل في الآيات (مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ) و(قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ) و(مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ) على الأذن والنفس. ولنتأمل التلازم بين الأفعال والصفات كما في (عَفَا عَنكُمْ) و(ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)، فالعفو لأنه سبحانه صاحب الفضل والمنة. وبين (فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) و(خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)، فالخبير هو من يعلم كَوَامِن النفس الخفية، وقريبًا منها بين (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ) وكذلك (وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) و(عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ). وبين (عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ) و(غَفُورٌ حَلِيمٌ)، فالعفو والمغفرة لما فعلوه (بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا) وكانوا مستحقين باستعجال العقوبة لولا حلم الله عزَّ وجل.

المقطع السابع (مواساة الرسول ﷺ وتطييب

خاطره وذكر فضائله)

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاء بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (آل عمران، ١٥٩-١٦٤)[62]

---

[62] لِنتَ: من اللين والسهولة في التعامل
فَظًّا: جاف الكلام
غَلِيظَ الْقَلْبِ: قاسي القلب
اَنفَضُّواْ: تفرقوا
شَاوِرْهُمْ: من الإستشارة
عَزَمْتَ: العزم هو عقد القلب على إمضاء الأمر
فَلْيَتَوَكَّلِ: فليعتمد، التوكل هو الاعتماد
غَالِبَ: قاهر
يَخْذُلْكُمْ: ترك النصرة
يَغْلُلْ: يخون، وهنا المقصود بها: يأخذ من الغنيمة خفية قبل قسمتها
تُوَفَّى: تُجازى

تدبر المعنى العام:

تنتقل الآيات – بعدما أقرت خطأ الطائفة المؤمنة وعصيانهم أمر الرسول ﷺ في المقطع السابق - إلى مواساة الرسول ﷺ وتطييب خاطره فيذكر سبحانه وتعالى منته على عبده بما ألقاه في قط للمسلمين بل لكل العالمين (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، سورة الأنبياء – ١٠٧). ، ولكنه ﷺ كان أكثر الناس تواضعًا فكان لا يعرفه الغريب بين أصحابه[63]، وكان هيِّنًا ليِّنًا، فلو كان على غير ذلك من الطباع كجفوة الكلام أوقسوة القلب لكان هذا سببًا في نفور من حوله من البشر، ولكنه ﷺ كان نبراسًا لكل خلقٍ حميدٍ وطبعٍ جميل (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، القلم – ٤)[64]. كان هذا كما ذكرنا تطييبًا لنفس الرسول ﷺ وذكرًا لفضائله، فبعد ما حدث من قتال وجراح ومعاناة ومخالفة أمره، يذكره الله عزَّ وجل بفائض الرحمة التي في قلبه ليعفوا عن الصحابة الذين اتبعوه، وليس هذا فحسب بل يستغفر لهم الله.

اتَّبَعَ: سعى وامتثل وقصد
رِضْوَانَ اللَّهِ: أمر الله
بَاء: رجع
سَخَطٍ: غضب شديد
مَأْوَاهُ: المأوى هو المستقر
هُمْ دَرَجَاتٌ: أي هم مختلفون في المنزلة
مَنَّ: من المنة وهي النعمة العظيمة
بَعَثَ فِيهِمْ: أرسل إليهم
يُزَكِّيهِمْ: يطهرهم من الذنوب

63 عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهري أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل) – صحيح أبي داوود.

64 وفي هذا لطيفة تربوية ألا وهي أنَّ الدعاة والمصلحين والمربِّين يجب أن يتحلوا بصفتي الرفق واللين وغيرهما من الصفات الحميدة، التي ترقق القلوب وتؤلف الأفئدة وتجمع الصفوف، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه). صحيح مسلم

ثم تأتي الآية لإقرار مفهوم إسلامي من أهم مفاهيم الحياة السياسية والإجتماعية، ألا وهو مبدأ الشورى، فيأمر الله عزَّ وجل رسوله الكريم أن يشاور أصحابه في أمور الدنيا، فإذا تم الإتفاق وعزم الأمر فلا وجه بعد للتردد بل يجب عليه أن يتوكل على الله لأنه سبحانه يحب المتوكلين. ويجب أن نقف وقفة طويلة مع هذا الأمر: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ).

إنَّ هذا الأمر جاء بعد مصيبة أُحُد التي حدثت بعدما نزل الرسول ﷺ[65] على رأي أصحابه في الخروج من المدينة[66]، فجاء إقرار مبدأ الشورى رغم الهزيمة ، وربما يظن ظانٌّ أنَّ الشورى هي سبب الهزيمة فينبذها بالكلية لما آلت إليه نتيجتها، فالمنطق البشري ينبذ السبب الظاهري للهزيمة. ولكن جاء هذا الأمر لتوضيح أنه يجب تفعيل الشورى حتى ولو جاءت النتائج على غير ما يرام، فلم تكن الشورى سببًا في الهزيمة بل السبب هو مخالفة أمر الرسول ﷺ، فيجب أن يتم تحليل الصورة بشكل صحيح حتى لا ننبذ ما هو من أصول الحكم وندع الأسباب الحقيقية للهزيمة. ثمَّ يجب على الطائفة المؤمنة أن تتقبل التجارب، فالتجارب جزء أصيل من حياة البشر، ولابد من الخطأ في الطريق نحو الكمال، ولكن يجب أن يتم توصيف المشكلة وتحليل الأمور بشكل صحيح دون الإعتماد فقط على أسباب ظاهرة ربما لم تكن هي السبب الرئيس في النتائج والتغافل عن الأسباب

---

[65] وشتَّان بين استجابة خير الورى الرسول ﷺ لرأي أصحابه، واستبداد فرعون برأيه (قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ، غافر،٢٩)، واستبداد فرعون هذه الأمة أبي جهل برأيه وعدم العودة إلى مكة يوم بدر رغم رسالة أبي سفيان بنجاة القافلة حيث قال: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

[66] كما تمَّ ذكره في ملخص الغزوة.

الحقيقية التي ربما تكون خفية تحتاج لنظر وفهم وتدقيق. ولكن النقاشات والتشاور لا تستمر أَبَدَ الحياة فلابد للقرار أن يُحْسَم في وقت معين وهنا عند الإتفاق والإنتهاء فيجب ألا يكون للتردد مكان[67]، فإذا عزم على أمر معين فيجب التوكل على الله والمضي قدمًا[68] في الأمر فسبحانه يحب من يتوكل عليه. وبرغم كل هذا الحَثِّ على الشورى، فلا يظن أَحَدٌ أنَّ الشورى بحدِّ ذاتها سبيلٌ للنصر، فالنصر من عند الله عزَّ وجل، فيجب أن نردَّ كل أمرٍ إلى الله سبحانه وتعالى، فهو الناصر الذي لا يُغْلَب من نصره، وهو القاهر الذي لن تجد من دونه وليًّا ولا نصيرًا، فوجب على المؤمنين أن يحسنوا التوكل عليه تحقيقًا لمفهوم العبودية أولًا، ثم لينالوا نصره في الدنيا والآخرة. ثمَّ تنتقل الآيات مرة أخرى لمحورها الرئيس في هذا المقطع ألا وهو الرسول ﷺ، فتذكر أنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يأخذ خفيةً من غنائم الحرب[69]، وقد قال بعض المنافقين ذلك في يوم بدر[70]. ولسائل

---

[67] وهنا لابد لنا من وقفة مع موقف الصديق في حروب الردة، فربما يظن أَحَدٌ أنَّ الصديق رضي الله عنه استبد بقرار قتال مانعي الزكاة – وهذا إن لم يكن قلة في الدين فهو قلة في الفهم – فالناظر والمتأمل للحوار الذي دار بين الصحابة يدرك امتثال الصديق للشورى والعمل بها، ولكن كانت حجة الصديق أكثر قوة من حجة الصحابة، حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا رأيت الله - عزَّ وجل - قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. فمعرفة الحق من عمر استوجبت منه النزول على رأي الصديق وبذلك صارت الشورى متوافقة مع رأي الحاكم، وليس استبدادًا من الحاكم برأيه.

[68] وهنا لابد من وقفة مع رؤية الرسول ﷺ، فبرغم أنها رؤية من نبي ورؤيا الأنبياء حق إلا أنها لم تقعده ولم يستسلم لها – لأنها كما قلنا لم يأت الوحي بالقتال في المدينة – فلم يحدث تشاؤم ولا طيره كما يقع من بعض الناس – وخصوصًا النساء، قال الرسول ﷺ:لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ، ويُعْجِبُنِي الفَأْلُ الصَّالِحُ: الكَلِمَةُ الحَسَنَةُ، صحيح البخاري.

[69] وهذا في غنائم الحرب وفي غيرها في من يقتطع حقوق المسلمين وخصوصًا من ولي أمرهم، وفي الحديث الصحيح: اسْتَعْمَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ

أن يسأل أنه لم يكن في غزوة أُحُدٍ نصرٌ فضلًا أن يكون هناك غنائم فما علَّة ذكر هذه الآية في معرض الحديث عن غزوة أُحُد وخصوصًا هنا في هذا المقطع. وهذا ربما يكون لأنَّ بداية عصيان أمر الرسول ﷺ والنزول من فوق جبل الرماة كان بسبب خشية البعض على الغنائم التي ربما كان وقع في قلب أحدهم أن يحرموا أجورهم ولا يشاركوا غيرهم النصيب من الغنائم، فجاءت هذه الآية تبرئ الرسول ﷺ أولًا مما قاله المنافقون وتقيم الحجة على من يقترف هذا الذنب وتعلن للجميع أنه من يقع في هذا الذنب فسوف يأتي بما أخذه بغير حق على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، ويومها ترد المظالم وتحاسب كلُّ نفسٍ عمَّا أسلفت عند مليك مقتدر لا يظلم عنده أحدًا. فشتَّان شتَّان بين أهل الإيمان الذين اتبعوا أمر الله وأمر رسوله وبين أهل النفاق والكفر الذين نالوا غضب الله في الدنيا على ما اقترفته أيديهم، وفي الآخرة لهم النار وبئس المستقر والمآب والمصير. ولا يجب أن يتساوى الفريقان، فهم في درجات متفاوتة عند الله تعالى وهو بصير بما يعملون، وكذلك لا يجب أن يتساوى الفريقان في قلوب المؤمنين ولن يحدث

رَجُلًا على صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، يُدْعَى ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ، قالَ: هذا مَالُكُمْ وهذا هَدِيَّةٌ. فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: فَهَلَّا جَلَسْتَ في بَيْتِ أبِيكَ وأُمِّكَ، حتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إنْ كُنْتَ صَادِقًا ثُمَّ خَطَبَنَا، فَحَمِدَ اللَّهَ وأَثْنَى عليه، ثُمَّ قالَ: أمَّا بَعْدُ، فإنِّي أسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنكُم علَى العَمَلِ ممَّا ولَّانِي اللَّهُ، فَيَأْتِي فيَقولُ: هذا مَالُكُمْ وهذا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أفلا جَلَسَ في بَيْتِ أبِيهِ وأُمِّهِ حتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ، واللَّهِ لا يَأْخُذُ أحَدٌ مِنكُم شيئًا بغيرِ حَقِّهِ إلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَومَ القِيَامَةِ، فَلَأَعْرِفَنَّ أحَدًا مِنكُم لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا له رُغَاءٌ، أوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أوْ شَاةً تَيْعَرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إبْطِهِ، يقولُ: اللَّهُمَّ هلْ بَلَّغْتُ بَصُرَ عَيْنِي وسَمْعَ أُذُنِي. صحيح البخاري.

[70] وسبب نزول هذه الآية أنَّ قَطيفةً حمراء افتُقدت يومَ بدرٍ فقال بَعضُ النَّاسِ لعلَّ رسولَ اللهِ أخذَها، فأنزلَ اللهُ تبارَك وتعالَى: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ).

ذلك إلا إذا كان الفريق المؤمن يتمتع ببصيرة من لدن الله عزَّ وجل توضح الأمور على حقيقتها[71]. وهنا توضيح لحقيقة راسخة وهي أنه من استمع وأطاع حتى لو هُزِم لا يتساوى أبدًا مع من عصى ونال السخط حتى وإن كانت له الغلبة يومًا ما. ثمَّ تعاود الآيات الحديث عن محور هذا المقطع ألا وهو الرسول ﷺ لتختمه بهذه الآية التي يمتن[72] الله عزَّ وجل على عباده المؤمنين بأنه أرسل إليهم رسولًا من قومهم يعرفهم ويعرفونه. جاء لهم تحقيقًا لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يوم رفعا القواعد من البيت[73]، ليتلو عليهم آيات الله ويطهرهم من دنس الشرك والموبقات ويعلمهم القرآن والسنة المطهرة فقد كانوا من قبل أن يرسل إليهم في ضلال مبين[74].

التدبر البلاغي:

ومرة أخرى، نرى التدرج في الأوامر في (فَاعْفُ عَنْهُمْ) و(وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) و(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) فبعد العفو عمَّا اقترفته أيديهم يأتي الاستغفار ثم يصيرون أهلًا للشورى. وتأمل معي وقع حرف الظاء – وهو من حروف الاستعلاء وحكمه

---

[71] ويروى عن الفاروق عمر رضي الله عنه كما عند ابن كثير أنه كان يدعو ويقول: اللهم أرنا الحق حقًّا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إمامًا.

[72] وكما قال تعالى:(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ، البقرة - ١٥١) – (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ، الجمعة – ٢)

[73] وقال تعالى: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، البقرة – ١٢٩).

[74] ولينظر مثلًا إلى أصناف النكاح في الجاهلية كما روى البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها.

التفخيم في التجويد – على الأذن في كلمتي (فَظًّا) و(غَلِيظَ) التي توحي بالقسوة. والتضاد بين النصر والخذلان في (يَنصُرْكُم) و(يَخْذُلْكُمْ) وكذلك بين الرضوان والسخط (رِضْوَانَ اللَّهِ) و(بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ) يؤكد المعنى ويوضحه.

المقطع الثامن (عودة لأحداث الغزوة وموقف المنافقين)

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (آل عمران، ١٦٥-١٦٨)[75]

---

75 أَوَلَمَّا: (أ) حرف استفهام، (و) حرف عطف، (لمَّا) حين، والمعنى: أعندما؟
مُّصِيبَةٌ: كارثة، يقصد بها قتل سبعين من الصحابة
قَدْ: حرف تحقيق
مِّثْلَيْهَا: أي ضعفها، بقتل سبعين وأسر سبعين يوم بدر
أَنَّى: من أين؟
فَبِإِذْنِ اللَّهِ: بقضائه وقدره
لِيَعْلَمَ: (ل) تعليل، يعلم أي علم الظهور، أي يظهر للناس - ما كان في علم الله المسبق - من هم المؤمنون حقًّا.
ادْفَعُواْ: ادفعوا عنا القوم من الدفاع، وقيل دافعوا عنا بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا
لَوْ نَعْلَمُ: لو نحسن أو نعرف
لاَّتَّبَعْنَاكُمْ: (ل) توكيد
بِأَفْوَاهِهِم: فوه هو الفم، جمع الفم أفمام وأفواه

تدبر المعنى العام:

ثمَّ تعود الآيات مرةً أخرى للحديث عن المعركة، ولكن ليس عن أحداثها بل عن أسبابها وما يتعلق بموقف المنافقين قبل وبعد المعركة. والخطاب للمؤمنين الذين تساءلوا كيف وصل بهم الأمر إلى هذه المصيبة، فيبدأ الله عزَّ وجل البيان أولًا بذكر سنة تداول الأيام، ليس هذا فحسب بل بالتذكرة أنَّ الخسارة التي عليها الصف المؤمن لا تقارن بخسارة الكفار قبل ذلك – أي يوم بدر - فقد كان مصاب الكفار يومها ضعف مصاب المسلمين يوم أُحُد[76]. ثمَّ تجيب الآيات عن السبب الذي يتعجب منه المسلمون حيث تساءلوا (قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا) أي كيف وقع هذا الأمر؟ والإجابة واضحة جدًا: (هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ) أي بما اقترفته أيديكم من مخالفة أمر الرسول ﷺ. وربما يتعجب البعض كيف يحدث ذلك والرسول ﷺ معهم وبين أظهرهم، فهذا من الفهم الخاطىء، فسبحانه وتعالى هو القادر على أن ينصرهم أو يخذلهم. نعم كان الرسول ﷺ معهم، ولكنهم هم الذين خالفوا أمره، ومغبة مخالفة أمره لا يجب أن تمر هكذا، فلو حدث النصر مع المخالفة هان في قلوبهم الإتباع بعد ذلك، وهذا أيضًا مما يجب أن يدرك ويعقل. وليس هذا معناه أنَّ جميع الصف المسلم كان سببًا في الهزيمة ولكن هذا من علم الله الأزلي[77] ومن

قَعَدُواْ: امتنعوا عن القتال
أَطَاعُونَا: استمعوا إلى رأينا ونزلوا عليه بعدم الخروج من المدينة
فَادْرَؤُوا: ادفعوا أو امنعوا

[76] وذلك لأن المسلمين استشهد منهم يوم أُحُد سبعون من الصحابة، غير أنَّ الكفار قُتِلَ منهم سبعون وأسر سبعون آخرون.

[77] وهذا هو علم الوقوع، أي العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

أمره وإذنه الكوني[78] وليتميز الصف المؤمن عن المنافق، وما أوسع البون بينهما. فالمنافقون هربوا قبل بدء المعركة خوفًا من القتال أو تضعيفًا لجبهة المسلمين، فوقف لهم ثلة مباركة من المؤمنين[79] تحضهم على القتال وتقول لهم تعالوا وشاركوا معنا في القتال وإن لم تشاركوا في القتال نصرةً لله فمن أجل قبيلتكم أو حتى لا تقاتلوا بل دافعوا عنا وإن لم تستطيعوا هذا ولا ذلك فتعالوا معنا كثروا سوادنا[80] فيخشى من أعدادنا الكفار، فما كان من المنافقين إلا أن قالوا قولًا عظيمًا، قالوا – وبئس ما قالوا – إنهم لا يحسنون القتال أو لا يرون قتالًا ولو علموا لشاركوا مع المؤمنين، وهم على هذه الحالة أقرب ما يكون إلى حال الكفر البيّن. يقولون ذلك للمؤمنين ولكن ما تخفي صدورهم أكبر، فإن استطاعوا أن

---

[78] الفرق بين الإذن الشرعي والكوني أنَّ الأول هو ما يجب أن يمتثل له المؤمن من أوامر ونواه وإن لم يحدث نظرًا لمخالفة الأمر، فمثلًا من الإذن الشرعي (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ، النور – ٢٦) فعلى الطيبين أن ينكحوا الطيبات ولو كان إذنًا كونيًا لما وجدنا طيبًا يتزوج من خبيثة أو العكس وهذا يحدث في دنيا الناس. ومثله قول الله تعالى: (وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا، النساء – ١٤١)، فمن إذن الله الشرعي ألا يكون للكافر على المؤمن سبيلٌ، وأحيانًا يكون للكافر على المؤمن سلطة وهذا متحقق في دنيا الناس. والإذن الكوني هو إما سنن الله الكونية من حركة كواكب ونجوم وغيرها، أو من سنن نصرة الحق ولو بعد حين، كما في قوله تعالى: (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الحج – ٤٠).

[79] وهو عبد الله بن عمرو بن حرام كما تقدم ذكره.

[80] ولعبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه موقف رائع في يوم القادسية، حيث قال أنس بن مالك رضي الله عنه رأيت يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وعليه درع يجرُّ أطرافها، وبيده راية سوداء، فقيل له : أليس قد أنزل الله عُذرك؟ قال : بلى، ولكني أكثر سواد المسلمين بنفسي. كما ذكر القرطبي. والمقصود بقول أنس (أليس قد أنزل الله عُذرك؟) قول الله تعالى (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ، الفتح – ١٧) وقوله تعالى (غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ، النساء – ٩٥).

يتحايلوا على المؤمنين فكيف لهم أن يخفوا ما في قلوبهم عن الله عزَّ وجل الذي يعلم ما يخفون وما يعلنون. ولم يكتفوا بهذا الفعل المشين قبل المعركة، بل استمروا في ضلالتهم وتشكيك المؤمنين في أجورهم وقالوا لهم[81] لو لم تجاهدوا وظللتم معنا ما حدثت لكم تلك الجراح وهذه المصائب، وما أخسرهم بهذا الفكر المريض، فهؤلاء يظنون أنَّ الموت مرتبط بالقتال[82]، فإن كان ما يقولونه حقٌ وصدقٌ فعليهم أن يدفعوا عن أنفسهم الموت وأنَّى لهم ذلك[83].

التدبر البلاغي:

كلمة (مِّثْلَيْهَا) تشعر معها بفضل الله السابق الذي يعلو هذا البلاء. وكلمة (لَوْ أَطَاعُونَا) توحي بسخرية المنافقين مع جهلهم الشديد، ويقابلها الأمر في (قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ) الذي غرضه الاستهزاء من المنافقين. وذِكْرُ الأفواه والقلوب في (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) تشعر معها بالنفاق الأكبر والإيمان الذي لا يتعدى اللسان ولا يصل القلب.

---

[81] يرجى مراجعة تدبر كلمة (إِخْوَانِهِمْ) في المقطع السادس من هذه الرسالة.

[82] ولا أجد أكثر من حال خالد بن الوليد رضي الله عنه بعدما أسلم وحسن إسلامه فصار سيف الله المسلول، حيث قال وهو على فراش الموت يموت وليس في ميادين الحرب التي صال فيها وجال: (لقد شهدت كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي موضع شبرٍ إلا وفيه ضربةٌ بسيف أو رميةٌ بسهم أو طعنةٌ برمح، وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء).

[83] وقيل أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول عليه لعنة الله.

المقطع التاسع (مفهوم الشهادة وقيمة الشهداء)

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران، ١٦٩-١٧١)[84]

تدبر المعنى العام:

إنَّ هذه الآيات الكريمة تعطي مفهومًا جديدًا لقضية الموت. إنَّ أهل الدنيا – من الكافرين والمشركين ومن على دربهم من الملحدين – يرون أنَّ الموت نهاية الحياة ولذلك يجدوا في طلب كلِّ لذةٍ حاليةٍ وكلِّ متعةٍ آنيةٍ، والمؤمنون يدركون أنَّ الحياة الحقة في الآخرة (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، العنكبوت – ٦٤). إنَّ غير المؤمن إن فاته شيءٌ من حطام الدنيا الفانية ركبه الهم والغم وكيف لا وهو يرى الدنيا غايته ومنتهاه،

---

[84] تَحْسَبَنَّ: تظن
فَرِحِينَ: انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية
آتَاهُمُ: أعطاهم فَضْلِهِ: كرمه والفضل هو الزيادة
يَسْتَبْشِرُونَ: من البشرى
يَلْحَقُواْ بِهِم: يدركوهم
مِنْ خَلْفِهِمْ: من بعدهم
وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ: أي على ما فاتهم من متاع الدنيا

والمؤمن يدرك أن الدنيا ظلٌّ زائل[85]، وهنا الفارق بين الفريقين، فأهل الدنيا أكثر الناس حرصًا على الحياة وخشية من الموت (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، البقرة –٩٦). فجاءت هذه الآيات توضح أنَّ هؤلاء القتلى في سبيل الله تنهى عن الظن أنهم موتى – بالمفهوم البشري – بل هم في حقيقة الأمر أحياء[86]، فهم يرزقون من نعيم الجنة، منشرحة صدورهم بما وهبهم الله من كريم عطائه وجزيل فضله. ليس هذا فحسب بل وهم على هذه الحالة من الرزق والنعيم، ينظرون إلى أخوانهم الذين ما زالوا سائرين على الدرب يفتحون أحضانهم يتلقونهم بالبشرى ويؤكدون لهم أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ويبشرونهم بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى (جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا، النبأ – ٣٦) لأنه سبحانه لا يضيع أجر العاملين من المؤمنين في الدنيا[87].

---

[85] كما قال الرسول ﷺ: (مالي وللدنيا إنما مثلي ومثلُ الدُّنيا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ثم راحَ وتركها) - سنن الترمذي

[86] كما قال الرسول ﷺ: (أرواحُ المؤمنينَ في أجوافِ طيْرٍ خُضْرٍ تُعلَّقُ في أشْجارِ الجنةِ، حتى يَرُدَّها اللهُ إلى أجْسادِها يومَ القيامةِ) - صحيح الجامع.
وكذلك في قول الله تعالى: (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ، البقرة -١٥٤)

[87] وبطولات الشهداء يوم أُحُد تسطر في التاريخ بحروف من النور، وكما قال أنس بن مالك رضي الله عنه عن عمِّه أنس بن النضر رضي الله عنه وغيره: كنا نرى أو نظن أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا، الأحزاب – ٢٣)، كما تم ذكرها في ملخص الغزوة.

التدبر البلاغي:

الأفعال المضارعة في (يُرْزَقُونَ) و(يَسْتَبْشِرُونَ) توحي بنبض الحياة في عروق الشهداء، وكذلك تكرار كلمة (يَسْتَبْشِرُونَ) يؤكد على المعنى وتزيد من الصورة كلمة (فَرِحِينَ) التي ترسم في العقل بهجة ما هم فيه من نعيم. واختلاف التنوين في كلمتي (أَمْوَاتًا) و(أَحْيَاءٌ) تشعر معها وأنَّ الموت حدثٌ زائل والحياة حدثٌ متجددٌ قائم.

المقطع العاشر (ما بعد غزوة أُحُد والحديث عن غزوة حمراء الأسد)

الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (آل عمران، ١٧٢-١٧٥)[88]

تدبر المعنى العام:

ثم تنطلق الآيات تصف هذه الفئة المؤمنة المكلومة والمثقلة بالجراح التي استمعت لأمر الله والرسول ﷺ وخرجوا مباشرة في طلب العدو في غزوة حمراء

---

[88] اسْتَجَابُواْ: أجابوا الأمر واستمعوا إليه
الْقَرْحُ: الجراح
قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: أي ركبٌ من عبد القيس[88]
جَمَعُواْ: أي الجيوش حتى يستأصلوكم
فَاخْشَوْهُمْ: من الخشية والخوف، أي لا تذهبوا إليه
حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ: اكتفي بالله ناصرًا ومعينا فهو خير وكيل، والوكيل هو النائب
فَانقَلَبُواْ: أي رجعوا إلى المدينة بعد انتهاء الغزوة
يَمْسَسْهُمْ: يصبهم
إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ: أي يخوفكم بأوليائه ويوهمكم أنهم ذوو بأس وشدة

الأسد[89]، فأثابهم الله بإحسانهم وتقواهم الأجر العظيم. هؤلاء الذين أراد الناس أن يفتُّوا في عضدهم بأن يلقوا في روعهم الخوف واليأس بأن الناس قد اجتمعوا مرة أخرى ليستأصلوا شأفتهم ويستبيحوا ديارهم وأموالهم فما زادهم هذا إلا إيمانًا وتسليمًا لله وانطلقت حناجرهم ونفوسهم بتوكيل الله عزَّ وجل في أمرهم وقالوا (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)[90] فسبحانه خير ناصر وخير وكيل[91]. فكان جزاء تسليمهم وحسن توكلهم على الله واتباعهم أمر الرسول ﷺ أن صرف عدوهم وعادوا إلى ديارهم في المدينة، كل هذا بنعمة من الله وفضل منه سبحانه وتعالى، لم يضرهم شيء لأنه سبحانه أهل كل فضل وكل منَّة، فله الحمد وله الشكر. ثم تختتم الآيات في هذا المقطع بالتحذير من الشيطان الذي هو أصل كل بلية، فهو يحاول أن يُلْقي في قلوب المؤمنين الخوف من أوليائه من الكفار، فعلى المؤمنين أن يخافوا الله ولا يخافوا ممن هو دونه وهذا من صميم الإيمان بالله عزَّ وجل.

ويجب أن نقف وقفة مع هذا القرار الحكيم الذي اتخذه الرسول ﷺ بالخروج إلى حمراء الأسد. إنَّ هذا القرار كان قرارًا تربويًّا في المقام الأول قبل أن يكون قرارًا سياسيًّا. نعم إنَّ من الحكمة السياسية أن تخرج لملاقاة العدو بعد كل ما أصابك

---

[89] كما سبق ذكره في أحداث السيرة.

[90] ولهذا الدعاء أثر في نفوس المؤمنين وخصوصًا عند اشتداد البلاء، كما قاله إبراهيم عليه السلام حين تخلى عنه الجميع وألقى في النار، وكما قال رسول الله ﷺ مقتديًا بأبيه إبراهيم الخليل في هذا الموقف، كما سبق ذكره في أحداث السيرة.

[91] أدرك السلف الصالح ما لهذه الجملة القرآنية الكريمة من تأثير، فكان نقش خاتم الإمام مالك رحمه الله حسبي الله ونعم الوكيل وسأله مطرف بن عبد الله عن سرِّ اختياره لهذه الآية الكريمة فقَالَ: "إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِقَوْمٍ قَالُوا: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ)." فقال مطرِّف: فَمَحَوْتُ نَقْشَ خَاتَمِي وَنَقَشْتُهُ (حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).

من جراح وآلام، بل وتطاردهم. إنها رسالة قوية – لأهل الجزيرة العربية عامةً ولقريش خاصةً - أننا في قوةٍ وبأسٍ وما حدث بالأمس كان مجرد كبوة عابرة، وكذلك هذا من الحنكة السياسية أن تلقي في قلوب العدو الرعب والخوف فتثنيهم عن أي تفكير بالعودة مجددًا لاستئصال المسلمين. ولكن إن كان فقط قرارًا سياسيًّا لَأَمَرَ الرسول ﷺ بتنقية الجيش من الجرحى والمصابين وتدعيم الجيش بمدد آخر من الأقوياء الذين لم يشاركوا في الحرب، وهذا لم يحدث، فلقد كان أَمْرُ الخروج فقط لأهل غزوة أُحُد ولا يشاركهم فيه أَحَدٌ من المسلمين ممن لم يحضر غزوة أُحُد[92]. فما أعظمها من رسالة تربوية أن تثير الهمة في قلوب المنكسرين الذين أصابتهم مصيبة أُحُد وأصابهم الغمُّ فوق الغمِّ بما كسبت أيديهم. ما أعظمها من رسالة تربوية تؤكد على معنى (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ، آل عمران – ١٣٩).

التدبر البلاغي:

التعميم في (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ) وعدم تخصيص قريش بالذكر كأنه يوحي بتكالب الدنيا كلها على هذه الفئة المؤمنة، والنكرة في (سُوءٌ) تفيد العموم، أي سوء ولو قليل، والنهي والأمر في (فَلاَ تَخَافُوهُمْ) و(خَافُونِ) يؤكد المعنى. ولا أجد أبلغ من قول الله تعالى (فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ) تعقيبًا على (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) فما أعظم جزاء المتوكلين.

---

[92] عدا جابر بن عبد الله رضي الله عنه كما سبق ذكره، وهو الإستثناء الوحيد.

المقطع الحادي عشر (مصير الكفار)

وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (آل عمران، ١٧٦- ١٧٨)[93]

تدبر المعنى العام:

ثم تنطلق الآيات تواسي الرسول ﷺ على كل ما حدث من مصائب يوم أُحُد، تواسيه ليس على جراحه الشخصية فما كان ﷺ يعبأ بأي مصاب في نفسه، بل تواسيه ألا يحزن على هؤلاء الذين يقعون في الكفر سريعًا، هؤلاء الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر من المنافقين، فهؤلاء لن يستطيعوا أن يضروا الله عزَّ وجل – تعالى الله علوًّا كبيرًا. وهذه الخطوات المتسارعة نحو الكفر كانت على يقين منهم رغم وضوح الدليل وإقامة الحجة عليهم (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ، النمل – ١٤). فاستحقوا

---

[93] الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ: الذين يقعون في الكفر سريعًا
حَظًّا: نصيبًا
اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ: اتخذوا الكفر بديلًا عن الإيمان
نُمْلِي: نُمْهِل
نُمْلِي لَهُمْ: برزقهم وتطويل أعمارهم وتأخير عذابهم
إِثْمًا: معاص وذنوب
مُّهِينٌ: أي مذل وبه إهانة

بهذه المسارعة ألا يكون لهم نصيبٌ من نعيم الآخرة، بل ولهم عذابٌ عظيمٌ بما اقترفته إيديهم. ثم يتكرر تأكيد المعنى، فإنَّ هؤلاء الخاسرين الذين اتخذوا الكفر بديلًا عن الإيمان لهم عذاب أليم. ولا يظن هؤلاء الذين يقعون في براثن الكفر أنَّ إمهال الله لهم – من الرزق وإطالة العمر وتأخير العذاب - هو من باب الخير لهم، بل على الحقيقة هو باب الإستدراج[94]، حتى يزدادوا أكثر في غيِّهم وضلالهم وآثامهم ومعاصيهم (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، العنكبوت – ٤٠)، فاستحقوا بذلك العذاب المذل المهين.

التدبر البلاغي:

وما أجمل الحركة في كلمة (يُسَارِعُونَ) التي توحي بالرغبة الحثيثة في قلوب المنافقين للإلتحاق بمعسكر الكفر، وشتان بين (يُسَارِعُونَ) و (وَسَارِعُواْ) التي ذكرها الله عزَّ وجل حثًّا للمؤمنين على المضي قدمًا في طريق الإيمان، كما تقدم ذكره في الآية ١٣٣ من هذه السورة الكريمة، فكلا الفريقين يبذلان الجهد وما أوسع البون بينهما (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ، هود – ٢٤). ولك أن تتأمل تنوع أنواع العذاب (وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) – (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) – (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) الذي يستحقونه فيجمع بين

---

[94] قال تعالى: (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ، الأعراف – ١٨٢ : ١٨٣). وقال سبحانه وتعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ، إبراهيم – ٤٢). والجدير بالذكر أنَّ مقولة (يُمْهِل ولا يُهْمِل) ليست حديثًا نبويًّا، ولكن المعنى صحيح وموافق قول رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، هود - ١٠٢) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

كل هذه الفظائع التي تليق بهم .. وكذلك تكرار (لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئًا) مرتين متتاليتن يؤكد المعنى ويريح قلوب المؤمنين أنَّهم في كنف العزيز الذي لا يضام.

المقطع الثاني عشر (الخاتمة والتذكرة بالحكمة من الإبتلاء)

مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (آل عمران، ١٧٩)[95]

تدبر المعنى العام:

وتختتم آيات غزوة أُحُد بالتأكيد مرةً أخرى على حكمة الله عزَّ وجل في هذا الإبتلاء، فسبحانه وتعالى بحكمته أراد أن ينقي الصف المسلم كما يُنَقَّى الذهب من الشوائب التي تلحق به. فهو جلَّ في علاه ما كان ليترك هذه الفئة المؤمنة على ما عليها من اختلاط المؤمن بالمنافق، فلزم أن تتضح الصورة ويتفرق الخبيث (المنافق) عن الطيب (المؤمن). وكل هذا في علم الغيب المسبق الذي لا يعلمه أَحَدٌ من البشر إلا من اصطفاه لذلك من صفوة خلقه ورسله (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا، الجن – ٢٦ : ٢٧). وفي النهاية، أمرٌ من الله عزَّ وجل للتأكيد على

---

[95] يَذَرَ: يترك
يَمِيزَ: يُفَرِّق – وفي بعض القرءات يُمَيِّز
الْخَبِيثَ: المنافق
الطَّيِّبِ: المؤمن
يُطْلِعَكُمْ: يعرفكم
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ: فتعرفوا المنافق من غيره قبل التميز
يَجْتَبِي: يصطفي ويختار

معنى الإيمان بالله ورسله جميعًا، ولهؤلاء المؤمنين المتقين جزيل الأجر من الله سبحانه وتعالى.

التدبر البلاغي:

والنفي في (مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ) يبرز رحمة الله بعباده المؤمنين الذين أصابهم بالبلاء حتى ينقِّي صفهم، والتضاد بين (الْخَبِيثَ) و(الطَّيِّبِ) يؤكد المعنى ويزيد الصورة وضوحًا في أعين المؤمنين.

تعليق عام

وهكذا تنتهي الآيات الكريمة التي تقص علينا مصيبة أُحُد من البداية إلى النهاية، ولكن يجب أن نقف بعض الوقفات مع هذا الفيض الغزير من المعاني المتدفقة التي بثت في ثنايا هذه الآيات.

أولًا: الخطاب القرآني في النصر والهزيمة.

إنَّ المتأمل للخطاب القرآني يدرك – بعين الصدق ولو كان كافرًا – أنَّ هذا الكتاب من لدن عزيز حكيم، ولا يستطيع أَحَدٌ من البشر أن يأتي بسورة أو آية من مثله. فتأمل معي كيف يكون الخطاب البشري للمنتصر والمنهزم وكيف كان الخطاب الإلهي. إنَّ البشر لا يرون في النصر إلا كل مَزَيَّة ولا يرون في الهزيمة إلا كل رزيَّة، ولكن الله يحاور المنتصر كما في مطلع سورة الأنفال للحديث عن غزوة بدر التي هي يوم الفرقان بقوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ، الأنفال – ١-٤). يخاطبهم بالزجر عمَّا بَدَرَ منهم من السؤال عن الغنائم، لما يعلم سبحانه خطر تسلل الدنيا إلى قلوب العباد وحتى لا يغتروا بأعمالهم وينسبوا النصر إلى أنفسهم، ولو كان هذا خطاب البشر لكان التقدير والثناء دون النظر إلى أحداث صغيرة مقارنة بالنصر العظيم. وعندما جاء الإنكسار والهزيمة، تجد الخطاب القرآني يرفع من شأن المنكسرين برغم ما وقعوا فيه من ذنوبٍ ومعاصي (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ

الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، آل عمران – ١٤٠ : ١٤١). إنَّ هذا هو التوازن الذي لا يكون في كلام البشر بل (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، هود – ١).

ثانيًا: شمولية الخطاب القرآني.

إنَّ الخطاب القرآني ليس خطابًا سياسيًّا وليس خطابًا اجتماعيًّا وليس خطابًا عسكريًّا صرفًا ولكنه يحتوي في طيَّاته كل هذه الخطابات، يدمجها دمجًا ويمزجها في الخطاب الأهم والأسمى ألا وهو خطاب الإيمان والتوحيد لله عزَّ وجل. إنَّ الخطابات البشرية تغفل جانبًا عن جانب، وترفع من شأن قضايا وتضع من شأن قضايا أخرى، وهكذا لن ترى أبدًا خطابًا بشريًّا[96] وافيًا متكاملًا، بل كُتِبَ عليه النقص. وتعالَ تأمل معي الخطاب القرآني لغزوة أُحُد فتجد أنَّ فيه معاني إيمانية تتمثل في التوكل على الله (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)، والشكر له (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، وأنَّ النصر بيده سبحانه وتعالى (وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)، وتقرر أنه سبحانه بيده الأمر (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ) – (قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)، وأنه سبحانه له الملك والأمر (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)، وأنه الغفور الرحيم (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، وأنَّ كل شيء لا يحدث إلا بأمره وإذنه (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)، وأنه القاهر فوق عباده الذي يحيي ويميت (وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ)، وأنه سبحانه العزيز الذي لا يقهر (إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ)، الوكيل الذي يتولى

---

[96] ويستثنى من هذا كلام الأنبياء المرتبط بالوحي، كالأحاديث النبوية مثلًا، لأنه وحي من عند الله عزَّ وجل.

عباده الصالحين (وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)، الرؤوف الرحيم الذي يقبل التوبة عن عباده (وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) – (وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)، الملك الذي يتولى وينصر عباده الصالحين (بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)، وأنه يحب المؤمنين الشاكرين (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) – (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) – (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) – (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)، ويبغض الظالمين (وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)، ويوضح عاقبة المتقين (وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)، وكذلك يبين عاقبة المكذبين (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) – (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ). وسوف تجد كذلك الحثَّ على التقوى (وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) – (وَاتَّقُواْ النَّارَ)، وطاعة الله والرسول ﷺ (وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ)، والحثَّ على أعمال البر (وَسَارِعُواْ). وستجد تصحيح المفاهيم عن بشرية الرسول ﷺ (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ) – (رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ)، وكذلك تصحيح مفاهيم الموت والحياة (وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) – (وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّه تُحْشَرُونَ) – (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)، والكثير من الأسماء والصفات (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) – (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) – (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) – (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) – (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) – (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) – (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)، وغيرها مما لا يمكن حصره.

ثالثًا: خطورة المنافقين في الصف المسلم.

إنَّ وجود المنافقين – مختفين - داخل الصف المسلم لمن أشد الأخطار على الأمة. وربما يتساءل إنسان: أيهم أشدُّ خطرًا، الكفار أم المنافقون؟ ولماذا كثر

الحديث عن المنافقين في هذه الآيات محل التدبر؟ ولماذا كانت المقابلة بين المؤمنين والمنافقين في قوله تعالى -في الموضع الثاني عشر - (يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) ولم تكن المقابلة كالكثير من آيات القرآن بين المؤمنين والكافرين؟

ونكرر ونؤكد على خطورة المنافقين[97] فهم في الحقيقة أشدُّ خطرًا من الكفار، فالكافر معلوم خطره ومن الممكن أخذ الحيطة من تصرفاته فعداؤه واضح غير مستتر، أمَّا المنافق فيرتدي عباءة الإيمان، ومن بني جلدتنا ويتكلم بلساننا ويستخدم نفس مصطلحاتنا، بل وربما تراه حينًا من الدهر مدافعًا عن قضايا الدين والأمة، ولكن هذا فقط في وقت الانتصارات، ولا يظهر مكره وحقده المستتر إلا في وقت الشدائد والمحن. هؤلاء المنافقون يتحينون الفرصة لزعزعة الصف، فتراهم يوم أُحُد انسحبوا قبل المعركة (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ)، ويتحينون الفرصة للسخرية من مواقف المؤمنين وتضحياتهم (الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)، بل ويتحينون الفرصة للانقضاض على الأمة في ثوابتها، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ). هذا حدث يوم أُحُد، وحدث في يوم الأحزاب[98] ويوم تبوك[99] وحدث بعدها مرات عديدة كلمَّا مرَّ بالمؤمنين ضائقةٌ أو نزلت بهم نازلة. هؤلاء لهم ألسنة سليطة على المؤمنين (فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ

---

[97] والمقصود هنا النفاق العقدي الذي قال فيه الله عزَّ وجل: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا، النساء – ١٤٥)، وليس المقصود النفاق العملي، ويرجى العودة لكتب العقيدة لتوضيح الفرق بين النوعين.

[98] كما في سورة الأحزاب.

[99] كما في سورة التوبة.

أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ، الأحزاب – ١٩)، ينتهزون الفرصة لأن ينهشوا في جسد الأمة وقت المحن (كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ، التوبة – ٨). واليوم، ارتدوا عباءات جديدة، فتراهم يتستَّرون تحت مصطلحات التنوير وتجديد الفكر الإسلامي فتراهم يطعنون في تراث الأمة الذي خلده التاريخ، طعنًا وتزييفًا ويدعون أنه نقدٌ علميٌ وما هو إلا نقضٌ لتراث الأمة وفكرها. والمشكلة كما سبق الذكر ليس فيهم فقط، بل فيما يبثونه من أقوال تزعزع ذوي الإيمان المتردد (لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، التوبة – ٤٧). فالحذر الحذر من هذه الطائفة، والحمد لله على ما بينه من صفاتهم في كتابه الكريم (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، التوبة – ٦٧).

رابعًا: سنة الإبتلاء.

إن سنة الله عزَّ وجل الماضية في عباده المؤمنين أن يبتلوا (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ، العنكبوت – ٢ : ٣)، فالدنيا لم تخلق للنعيم الدائم بل إنها دار امتحان وابتلاء (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، البقرة – ١٥٥). والمؤمن في كل أحواله على خيرٍ كما قال رسول الله ﷺ: (عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له) – صحيح مسلم.

إنَّ الابتلاءات على مراراتها تحتوي في طياتها الكثير من المنح الربانية (وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ، البقرة – ٢١٦)، وفي هذه الآيات التي تدبرناها اتضح لنا الكثير من هذه المنح ويمكن تلخيصها سريعًا في خمسة أمور: تمييز الصف وتنقية القلب ورفع الدرجات واتخاذ الشهداء ومحق الكافرين. فالصف المتشابك يجب أن يتمايز حتى تتضح الصفوف، فيُعْرَفَ المؤمن من المنافق (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ، محمد – ٢٩ :٣١). والقلب لابد أن ينقى، ولا ينقى إلا بالمحن التي تصهر القلوب، فالدنيا[100] وبهرجها من نصرٍ ونعيم لأشد خطرًا على قلب المؤمن (كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى، العلق – ٦ : ٧). وربما يرتبط القلب بزخرف الدنيا وما عليه الكفار من نعيم (وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ، الزخرف – ٣٣ :٣٥) فيظن أنهم على الحق فيُفْتَنُ القلب وتستقر الشبهة، فعندما يحدث هذا التدافع (وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ، محمد – ٤) ينقى القلب من هذه الشبهات. أمَّا رفع الدرجات فلِما يلاقونه من شدة ومصائب وقرح فيصلون إلى

---

[100] وفي الحديث، قال رسول الله عليه وسلم: (فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تُبسَط الدنيا عليكم كما بُسطتْ على من كان قبلكم، فتَنافَسوها كما تَنافسوها، فتُهلِكَكم كما أهلَكتْهم) – متفق عليه، وفي الحديث الآخر، قال رسول الله عليه وسلم: (إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها) - متفق عليه.

درجات علا لم يكونوا بالغيها بأعمالهم، كما قال رسول اللهﷺ: (إنَّ العبدَ إذا سبقتْ له من اللهِ منزلةٌ فلم يبلُغْها بعملٍ؛ ابتلاه اللهُ في جسدِه أو مالِه أو في ولدِه، ثم صبر على ذلك حتى يُبلِّغَه المنزلةَ التي سبقتْ له من اللهِ عزَّ وجلَّ) – صحيح الترغيب. وأعلى هذه الدرجات هي درجة الشهداء التي هي محض فضلٍ واصطفاء من الله عزَّ وجل يرزقه من يشاء من عباده المخلصين (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، محمد – ٤). ومحق الكافرين حادثٌ من وجهين، الأول عقوبة لما فعلوه من ذنوب في الدنيا وإيذاء للمؤمنين، والوجه الثاني وهو حادثٌ لابد منه لا محاص، فبعد المحنة يقوى الصف المسلم ويعاود الكرة عليهم للنصر (وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا، الإسراء – ٨).

خامسًا: الشورى مبدأ أصيل للحكم في الإسلام.

الشورى مبدأ إسلامي أصيل ، هذا المبدأ لا بدّ منه لقيام البيت المسلم أولًا ثمَّ المجتمع المسلم ثانيًا ثم الدول الإسلامية. وفقدان الشورى أو تعطيلها أو تهميشها من أشد الأخطار على هذه الأمة. فالشورى أمرٌ عام يجب أن يأخذ به الرجل في أسرته والزوجة في بيت زوجها والمدير في شركته والأستاذ في جامعته والوزير في وزارته والأمير في إمارته والحاكم في مملكته ودولته (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ، الشورى – ٣٨)، وكما قال الرسول ﷺ: (إنَّ اللَّهَ لا يجمعُ أمَّتي علَى ضلالةٍ ويدُ اللَّهِ معَ الجماعةِ) – صحيح الترمذي. وكم رأينا من بيوت تنهار لغياب النقاش بين الرجل وزوجته، وكم رأينا من مجتمعات

تفشل لانعدام الحوار بين طوائفها، وكم رأينا من دولٍ تنهار[101] وحضارات تسقط لتفشي الاستبداد وغياب الشورى، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

تمت بحمد الله وفضله.
أحمد أبو اليزيد

[101] يرجى مراجعة كتاب (دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية) للدكتور عبدالحليم عويس رحمه الله.